قضايا قرآنية

في ضوء الدراسات اللغوية



تأليف
الدكتور عبد العال سالم مكرم
أستاذ النحو العربي
بجامعة الكويت

مؤسسة الرسالة

قضايا قرآنية

في ضوء الدراسات اللغوية

الطبعة الأولى

١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م



مؤسسة الرسالة بيروت - شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة
هاتف ٣١٩٠٣٩ - ٢٤١٦٩٢ - ص.ب ٧٤٦٠ برقياً بيوشران



في ضوء الدراسات اللغوية

تأليف
الدكتور عبد العال سالم مكرم
أستاذ النحو العربي
بجامعة الكويت

مؤسسة الرسالة



المَـدْخَـل

القُرآنُ المعْجـزَة

يعجز الباحث مهما أوتي من قدرة في التعبير، وقوّة في البيان، وجزالة في القول أن يحيط بأسلوب القرآن من حيث الفصاحة والبلاغة، من حيث اللفظة الموحية، والكلمة المشرقة، والتركيب المبدع، والبيان الخلاّب، ولله درّ حجة الإسلام الإمام الغزاليّ حيث ينصح القارئين في كتاب الله تعـالى أن يتدبـروا أسراره، ويبصروا عجائبه، فيقول في تلاوته، وما ينبغى أن تكون عليه:

«إلى كم تطوف على ساحل البحر مغمضاً عينيك عن غرائبها ، أوَمـا كان لـك أن تركب متن لُجَّتِهـا لتبصر عجائبهـا ، وتسافـر إلى جـزائـرهـا، لاجتنـاء أطايبها، وتغوص في عمقها، فستغنى بنيل جواهرها، أوما بلغك أن القرآن هو البحر المحيط، ومنه يتشعّب علم الأوّلين والآخـرين، كما يتشعب عن سـواحل البحر المحيط أنهارها وجداولها.

أوما تغبط أقواماً خاضوا في غمرة أمواجها، فظفروا بـالكبريت الأحمـر، وغاصوا في أعماقها، فاستخرجوا الياقوت الأحمر، والزبرجد الأخضر»[1].

وإعجاز القرآن الكريم تناوله العلماء بـالدراسـة والبحث، ومع ذلـك فما زالت وجوه إعجازه بكراً لم تُفَضّ، فكلما ظهرت معان تجدّدت معان أخرى، وهكذا، فمعاني القـرآن مع المتـدبرين ولادة بعـد ولادة لا تنتهى حتى يرث الله الأرض ومن عليها، فما دام القرآن الكريم يتلى في ظلال التدبّر والتفكير، فإن

---

(١) جواهر القران ودرره/٨ ـ دار الآفاق الجديدة ـ بيروت ـ بتصّرف .

المعاني تتشقق، والأفكار تتولّد، والدّلالات تتتابع، والإمتاع بالقراءة والتلاوة يملأ النفس خشية، والقلب خشوعاً، والفكر نوراً، والعقل هداية.

ولهذا كان السّيوطيّ على حقّ حينما يتحدّث في «إتقانه» عن إعجاز القرآن الكريم بقوله:

«وقد قلت في إعجاز القرآن وجهاً ذهب عنه الناس، وهو صنيعه فى القلوب وتأثيره في النفوس... إذا قرع السمع خلص له القلب من اللذة والحلاوة.. قال تعالى: ﴿لو أَنْزَلْنا هذا القرآن على جبلٍ لرأيتَهُ خاشعاً مُتَصدِّعاً من خَشْيَةِ الله﴾ [1]. ﴿الله نزّل أَحْسَنَ الحَديثِ كتاباً مُتَشابِهاً مَثانِيَ تَقْشَعِرُّ منه جلودُ الّذين يَخْشَوْن رَبَّهُمْ﴾[2].

ويسجِّل السّيوطيّ في «الإتقان» أيضاً قول ابن سراقة في أن إعجاز القرآن الكريم بحر لا ساحل له، وما قيل فيه ما هو إلاّ غيض من فيض وقطرة من بحر، فماذا قال ابن سراقة؟ قال:

«إختلف أهل العلم في وجه إعجاز القرآن، فذكروا في ذلك وجوهاً كثيرة كلّها حكمة وصواب، وما بلغوا في وجوه إعجازه جزءاً واحداً من عشر معشاره.

فقال قوم: هو الإيجاز مع البلاغة. وقال آخرون: هو البيان والفصاحة وقال آخرون: هو الوصف والنظم.

وقال آخرون : هو كونه خارجاً عن جنس كلام العرب من النظم والنثر والخطب والشعر مع كون حروفه في كلامهم، وجنس آخر متميّز عن أجناس خطابهم، حتى إنّ من اقتصر على معانيه، وغيّر حروفه أذهب رونقه، ومن اقتصر على حروفه، وغيّر معانيه أبطل فائدته، فكان في ذلك أبلغ دلالة على إعجازه.

وقال آخرون: هو كون قارئه لا يكلّ، وسامعه لا يملّ، وإن تكرّرت عليه تلاوته»[3].

---

(١) الحشر/٢١ . (٢) الزّمر/٢٣ .

(٣) انظر هذه النصوص في «الإتقان» ٢/١٢١، ١٢٢ .

ومع هذه الآراء المتعَددة في وجوه إعجاز القرآن الكـريم فإني أميـل إلى رأى الزركشى، وهو أن إعجاز القرآن الكريم وقع بجميع ما سبق ذكره من ألوان الإعجاز، قال كما نقل عنه السيوطي في الإتقان ما نصه: وقال الـزركشىّ فى «البرهان»: أهل التحقيق على أن الإعجاز وقع بجميع ما سبق من الأقوال، لا بِكُلّ واحد على انفراد، فإنه جمع ذلك كله، فلا معنى لنسبته إلى واحد منها بمفرده، مع اشتماله على الجميع بل وغير ذلك مِمّا لَمْ يَسْبِق، فمنها:

الرّوعة التي في قلوب السّامعين وأسماعهم، سواء الُمقِرُّ والجاحـــد،

ومنها: أنه لم يزل، ولا يزال غضاً طريّاً في أسماع السـامعين وعلى ألسنة القارئين.

ومنها: جمعه بين صفتى الجزالة والعذوبة، وهما كالمتضادّين لا يجتمعان غالباً في كلام البشر»[1].

---

(١) الإتقان ٢/١٢٢ .

تحدّي القرآن أصحاب الفصاحة والبيان

قبل أن نشير إلى هذا التحّدى قفزت على ذهنى فكرة جاءت عفو الخاطر، فأنعمت النظر فيها، فرأيت أنها فكرة جديرة بالبحث وهي :

هل القرآن الكريم بأسلوبه الرائع تحدّى الشّعر أو النثر أو تحدّى الصناعتين معاً ؟

أمّا تحدّيه الشعر فهذا تحدّ معروف، بل إن دلالة التّحدى إذا انصرفت لا تنصرف إلاّ إلى الشعر، والشعر فحسب في نظر كثير من الباحثين، لأنه القمة في التعبير، والسُّمُو في البيان، والروعة في الموسيقى، والجزالة في اللفظ والفخامة في المعنى. فإذا تحدّى القرآن، فالتحدّي لمن يملك هذه القوة من الثروة الكلاميّة .

وفي رأيي بعد دراسة قمت بها أن القرآن الكريم أيضاً تحدّى النثر بضروبه المختلفة، وفنونه المتعددة، فقهر الخصمين، واستعلى على الصناعتين، وجاوز قمة الشعر إلى قمم أعلى، وترك النثر ضعيف القوى لا يقدر على الحركة أمام سطوة القرآن البيانية، وقدرته البلاغية.

وقد فتحت لنا هذه الفكرة باب الحديث عن النثر في العصر الجاهليّ.

النثر في العصر الجاهليّ:

مما لا شك فيه أن العرب في العصر الجاهلي كان لهم نثر رائع، عبّروا به عن أفكارهم، وتجلّى على ألسنة خطبائهم في مواقف الفخر ومواطن الحرب والسّلم، وجرى على ألسنة حكمائهم في أمثال ما زالت حيّة حتى يومنا هذا،

وستظل كذلك، لأنها نتاج تجارب مع الحياة، وحصيلة أحداث انبثقت مع المجتمع.

وقد اختلفت آراء النقّاد والمؤرخين فى نشأة النثر الجاهلى فقد أنكر بعض النقّاد هذا النثر الجاهليّ، وعلى رأس هؤلاء النقّاد الدكتور طه حسين في كتابه: «في الأدب الجاهلى» حيث ادّعى أنه لا وجود لهذا النثر في الجاهلية قبل الإسلام، وأن الباحث البصير يرى بعد الدِّراسة والبحث أن النثر الجاهلى المرويّ ما هو إلاّ نثر منتحلٌ قَبْل الإسلام، وأَمْرُه وأَمْرُ الشِّعر سِيَّان، فكما انتحل الشعر ونسب إلى الجاهليين كذلك انتحل النثر ونسب إلى الجاهليين، ذلك لأن النثر الذي يهتم به مؤرخ الأدب هو النثر الذي يُعدُّ أدباً، وهو النثر الذي يحمل في طيَّاته، وعلى سطحه ألواناً من الجمال الذي يؤثر في النفس كما يحدث هذا التأثير مِنَ الشِّعر. وسار الدكتور طه في كتابه، يشرح وجهة نظره معلِّلاً نظريته بأن النثر الأدبي الجاهلي لا وجود له في الحياة الجاهلية، على حين لا ينكر أن هناك نوعاً من النثر يعنى بالأحاديث اليومية، والحاجات العادية المبتذلة، وهذا من دون شك لا يستطيع أحد إنكاره، لأنه يجرى على ألسنة الناس وسيلة تفاهم في شؤون الحياة، وضروبها المختلفة.

يقول ما نصّه: «فليس من شكّ في أنه كان للعرب الجاهليين نثر منذ عصور قديمة جداً، وليس من شك في أنَّهم تخاطبوا بالإشارات والكلمات والجمل المقتضبة، قبل أن يظهر فيهم الشعور الفنِّي الذى يحملهم على أن يتغنَّوا ويقرضوا الشعر ولكن هذا النَّوع من النّثر.... لا يعنى مؤرخ الآداب في قليلٍ ولا كثير... إنما النّثر الذى يعنى به مؤرخ الآداب هو النّثر الذى يمكن أن يُعدّ أدباً، والذي يمكن أن يقال: إنه فنّ، فيه مظهر الجمال، وفيه قصدٌ إلى التأثير في النفس من أى ناحية من أنحائها. هو هذا الكلام الذى يعنى به صاحبه عناية خاصة، ويتكلَّفه تكلفاً خاصّاً، ويريد أن يأخذك بالنظر فيه، والتعويل عليه. كما يعنى الشاعر بشعره، ويحاول أن يؤثر به في نفسك.....

فإذا فهم النثر على هذا النحو... فليس من شك في أنّه قد كان عند العرب أحدث عهداً من الشعر...» إلى أن يقول:

«ونحن نعرف أن الشعر أقدم عهداً من النثر، وأنه أوَّل مظاهر الفنّ في الكلام، لأنه متصل بالحسّ والشعور، والخيال. . . فهو ينبعث إذن عن الحياة الإنسانية انبعاثاً يوشك أن يشبه إنبعاث الضوء من الشمس، والعطر عن الزهر.

فأما النثر فهو لغة العقل، ومظهر من مظاهر التفكير، وتأثير الإرادة فيه أعظم من تأثيرها في الشعر أيضاً، فليس غريباً أن يتأخر ظهوره»(١).

واضح إذاً من هذه النصوص أن الشعر في رأى الدكتور طه حسين أسبق وجوداً من النثر الفَنيّ عند العرب في العصر الجاهلىّ لأن النثر نتاج العقل، وثمرة الإرادة، وحصيلة التفكير وهذا لا يَتَأَتَّى إلَّا إذا نضج العقل العربي في العصر الجاهلىّ، وهذا أمر بعيد مخالف لطبائع الأمم، وعادات الشعوب.

«ولسنا نعرف أمة قديمة أو حديثة ظهر فيها النثر قبل أن يظهر الشعر أو ظهر فيها النثر مع ظهور الشعر، وإنما الذي نعرفه في تاريخ الآداب عامَّة أن الأمم تأخذ بحَظِّها من الشعر قبل كل شىء. . . وأنت تستطيع أن تلمس الأمر عند اليونان والرومان، والأمم العربيَّة فَتَرى أن هذه الأمم كلها تغنَّت ونظمت الشعر قبل أن تعرف النثر بأزمان طوال».

والذي يريد أن يخلص إليه الدكتور طه من هذا الرأي الذي سجلَّه في كتابه «فى الأدب الجاهلى» هو أنه يرفض «من غير تردّد كل ما يضاف إلى عرب الجنوب من نثر قبل الإسلام. . . أما عرب الشمال فلا بدَّ أن نقف من نثرهم موقفنا من شعرهم» وموقف الدكتور طه من شعر عرب الشمال موقف الإنكار كما هو واضح ومعروف.

ويختم الدكتور طه حسين حديثه عن النثر الجاهلى بقوله:

«فأنت ترى فى هذا الكتاب كلّه أن الأمر في الأدب الجاهلى مخالف كل المخالفة لما اتَّفق عليه الأساتذة والمعلمون، فكثرة الشعر الجاهلىّ بين مرفوض ومشكوك فيه، وقِلَّته في حاجةٍ إلى الدرس، وما يُضاف إلى الجاهلية من نثر لا قيمة له، ولا غناء فيه. . . وإذا لم يكن بدّ من أن نختم هذا الشعر

---

(١) في الأدب الجاهلي/ ٣٢٥ ، ٣٢٦ بتصَرّف .

بجملةٍ تلخِّص رأينا فنحن ننظر إلى الأدب الجاهليّ كما ينظر المؤرخ إلى ما قبل التاريخ ، ويتخذ لدرسه الوسائل التي تتخذ لدرس ما قبل التاريخ ، فأما تاريخ الأدب حقّاً ، التاريخ الذي يمكن أن يدرس في ثقة واطمئنان ، وعلى أرضٍ ثابتة لا تضطرب ولا تزول فإنما يبتدىء بالقرآن »[1] .

****

مناقشة نظرية الدكتور طه حسين في إنكار النثر الأدبي الجاهلي :

إن الباحث فى نظرية الدكتور طه حسين التى تنكر أن للعرب الجاهليّين نثراً أدبياً يتوقف طويلاً أمام هذه النظرية، لأنها لم تقدِّم لنا دليلاً واحداً نطمئن إليه فى هذا الإنكار، وكل ما قدَّمه هو أن الشعر أسبق وجوداً من النثر كما هو الحال في الأمم القديمة، وبعض الأمم الحديثة التي تعيش حتى هذا العصر على البداوة والفطرة.

وفي رأيى أن النثر الأدبي أسبق من الشعر، لأن النثر وليد العَقْل ونتاج الفكْر، ولا يمكن بأية حالٍ من الأحوال أن يكون هناك شعور وإحساس، وخيال وعاطفة إلاَّ إذا ارتكز ذلك كلّه على العقل والتفكير وإلاَّ لكان هذا الشعر أصواتاً لا تبين، وكلمات ممزقة مقطعة ليس بينها رابطة، لأن الذي يرتب الكلام، وينظم الشعور، ويختار لفظاً على لفظ ويَضَعُ جملة مكان جملة إنما هو أولاً وأخيراً العقل والفكر، ومِنْ ثَمَّ كان ابن رشيق في كتابه «العمده» على حق في قوله :

«وقد اجتمع الناس على أن المنثور في كلامهم أكثرُ، وأقلُّ جيِّداً محفوظاً وأن الشعر أقلُّ، وأكثر جيداً محفوظاً، لأن في أدناه من زينة الوزن والقافية ما يُقارب به جَيِّدَ المنثور.

وكان الكلام كله منثوراً، فاحتاجت العرب إلى الغناء بمكارم أخلاقها، وطيب أعرافها، وذكر أيامها الصَّالحة، وأوطانها النازحة، وفرسانها الأمجاد وسُمَحائِها الأجواد، لتهزَّ أنفسها إلى الكرم، وتدلّ أبناءها على حسن الشِّيم،

---

(١) انظر الأدب الجاهلي/٢٣٢ ـ بتصرّف .

فتوهّموا أعاريض جعلوها موازين الكلام، فلمَّا تمَّ لهم وزنه سمّوه شعراً، لأنهم شعروا به أى فَطِنوا.

وقيل: ما تكلمت به العرب من جيِّد المنثور أكثر مما تكلمت به من جيِّد الموزون فلم يحفظ من المنثور عشره، ولا ضاع من الموزون عشره»[1].

فهذا النص يدل دلالة واضحة على أن النثر أسبق من الشعر وأن العرب كان لهم منثور جيِّد، ولكن ما حفظ منه قليل، وهذا أمر طبعي، لأن الذاكرة لا تستطيع أن تستوعب هذا التراث النثرى لِتَكْنُزَهُ في خلاياها، وتنقله إلى الأجيال التالية جيلاً بعد جيل، ولذلك كان حَظّ الشعر في الرواية والنقل أكبر من حَظّ النثر، فموسيقاه، وقافيته، ووحداته الفنية، وتناسق ألفاظه، وإشراق كلماته، كل ذلك ساعد الذاكرة على الاحتفاظ به لتسلّمه إلى الأجيال جيلاً بعد جيل، وكان ابن رشيق دقيقاً جداً حينما ذكر أنه لم يبق من المنثور إلاَّ عُشْرُه ولم يضع من الموزون إلاَّ عُشْرُه.

رَأْيُ الدكتور زكي مبارك :

لئن أنكر الدكتور طه حسين وجود النثر الجاهلى الفنىّ قبل الإسلام، فإن الدكتور زكى مبارك كان على النقيض من ذلك، ففى كتابه «النثر الفنى» فَنَّدَ نظرية الدكتور طه حسين تفنيداً علميّاً، مبيناً أن هذه النظرية لا تقوم على أساس علميّ متين، وإنما قامت على أوهام استوردها من المستشرقين، فملأت فكره واستولت على عقله، وحاول أن ينسج عليها ثوب الحقيقة، والحقيقة منها بَرَاءٌ.

وخلاصة رأى الدكتور زكى مبارك نجملها فيما يلي:

١ - ليس معنى قلة النثر الذى روى عن العصر الجاهلى دليلاً كافياً على أن العرب في هذا العصر لم يكثروا منه، وقياس النثر على الشعر في مجال الكثرة قياس غير عِلميّ فقلة النثر بالنسبة للشعر الذي ورد من العصر الجاهلى ليس لها إلاَّ معنى واحد وهو «أن الشعر موزون مقفًّى يسهل

---

(١) العمدة/٢٠، ٢١.

حفظه، ولأن أكثره قيل في حوادث مشهورة ساعدت على ترديده، ولأن التّدوين كان قليلاً جداً، فلم يحفظ به من النثر إلاَّ اليسير»[1].

٢ ـ كثير جدّاً من الخطباء في العصر الجاهلى ضاعت خطبهم مع شهرتهم فى الخطابة، وبراعتهم في القول «مثل سحبان وغيره من الخطباء الذين حدَّثنا عنهم الجاحظ وغيره ممن عنوا بتدوين أصول الآداب»[2].

ومعنى ذلك أن الآثار القليلة التي وردت لنا في مجال الخطابة لا يمكن بأية حال من الأحوال أن تمثل كلّ ما قيل في العصر الجاهليّ من هذا اللون الفني، وهو ما نُسَمِّيه الخطابة، وذلك ناشيء لقلة التدوين، وأن مُعْظَم الرُّواة كان همهم الشعر والشعر فحسب تتداوله ألسنتهم حتى وصل إلى عصر التدوين.

٣ ـ وفي رأى الدكتور زكى مبارك أن القرآن الكريم وهو القمة في النثر جاء بلغة العرب في عصرهم الجاهلى ليكون موضع تحدّ، فلو لم يكن للعرب الجاهليين نثر فنيّ رائع لما كان هناك مجال للتحدّي.

يقول الدكتور زكى مبارك متحدِّثاً عن القرآن أنه «يعطينا صورة للنثر الجاهلى وإن لم يمكن الحكم بأن هذه الصورة كانت مماثلة تمام المماثلة للصوّر النثرية... عن الكُتَّاب والخطباء»[3].

وينقد الدكتور زكي مبارك الدكتور طه حسين في نظريته أن القرآن الكريم لا هو شعر ولا هو نثر وإنما هو قرآن ...

ويبيِّن في نقده أن الدكتور طه بتقسيمه الكلام إلى ثلاثة أقسام: شعر، ونثر، وقرآن أنه ينجو بهذا التأويل من النقد، والحقيقة أنه بهذا التأويل يضع يده في يد المستشرقين الذين «يرون بلا حق أن العرب لم تكن لهم ذاتية أدبية وإنما أخذوا طرائق النثر الفنىّ عن الفرس واليونان»[4].

---

(١) النثر الفَنِّي/٤٢.

(٢) المرجع نفسه والصفحة.

(٣) النثر الفني/٤٢.

(٤) المرجع نفسه/٤٤.

٤ ـ وفى رأى الدكتور زكى مبارك أن «القرآن شاهد من شواهد النثر الفنىّ، ولو كره المكابرون.

فأين نضعه من عهود النثر في اللغة العربية؟ أنضعه في العهد الإسلامي؟ وكيف والإسلام لم يكن موجوداً قبل القرآن حتى يغيِّر أوضاع التعابير والأساليب؟ فلا مفر إذن من الاعتراف بأن القرآن يعطى صورة صحيحة من النثر الفنى لهداية أولئك الجاهليين، وهم لا يخاطبون بغير ما يفهمون، والنبي جاء لإرشاد قومه، وأمْرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر في الحدود التي رسمها الدين الحنيف ولم يكن القرآن إلاّ أداة لنشر الرسالة الكريمة التى أعزَّت العرب بعد ذلّ، وهدتهم بعد ضلال»[1].

٥ ـ إشارة القرآن الكريم نفسه إلى أن الرسول لا يرسل ﴿ **إلاَّ بلسان قومه ليبين لهم**﴾ «وتلك إشارة نُلَوِّحُ بها لِمَنْ لا يكفيهم المنطق، وإلاَّ فكيف يعقل أن يحدِّث النبي قومه بما ينبو عن أذواقهم وأفهامهم، وهو رجل مسؤول لا يستطيع أن يقصد إلى الإغْراب فيالألفاظ والتعابير، أو قهر اللغة على الالتواء عما ألف العرب من طرائق البيان»[2]

٦ ـ ويحلل الدكتور زكي مبارك كلمة الدكتور طه حسين في أنَّ القرآن الكريم ليس بنثر وإنّما هو قرآن . فيقول :

« القرآن ليس بشعر ، لأنَّـه خالٍ من القوافي والأوزان وهذا موضع اتفّاق ، ولكن أيمكن القول بأنّه ليس بنثر أيضاً كما يتوهّم الدكتور طه حسين ؟ وليت شعري لمن يقال هذا الكلام ؟ أيقال لرجال الدين ؟ وكيف وهذه مسألة لغوية لا دينيّة ، وليس في أصول الدين ما يقهرنا على القول بما لم يَقُلْ به أحد من علماء اللغات ؟ أيقال لمؤرخي اللغة العربية ؟ وكيف وهم متفقون على أنَّ القرآن كلام منثور ، وإنْ تفرّد ببعض الخصائص والمميزات .

---

(١) النثر الفني / ٤٤ .

(٢) المرجع نفسه والصفحة .

أيقال: إنَّ الكتاب العزيز لا هو شعر ولا هو نثر، وإنّما هو قرآن لنصدّق أوهام من يقولون بأنَّ العرب لم يكن لهم نثر فنيّ قبل الإسلام، لأن النثر الفنيّ لغة العقل، وأولئك قوم كانوا يحيون حياة أولية لا تبيح لأمثالهم غير التغنّي بعواطف الأطفال.

إذا كانت ميزة النثر الفَنّي أنه أداة لشرح الحقائق التي توحي بها العقول فمن ذا الذي يستطيع أن ينكر أن القرآن عرض لكثير من المعضلات العقلية والاجتماعية والروحية التي كانت تغزو أفئدة العرب في الجاهلية ؟ أو من ذا يرتاب في أنه خاطب العرب باسم العقل لا باسم الخيال ؟ »[1] .

بهذا التحليل الرائع، والمنطق الصائب استطاع الدكتور زكي مبارك أن يضع النقاط على الحروف في هذه القضّية مبيّناً أن النثر الفنّي في العصر الجاهلي حقيقة لا تقبل الشكّ، وواقع لا يقبل الجدل، ويكفي دليلاً على ذلك أن القرآن نزل بلغة النثر وليس بلغة الشعر، وتحدّاهم في المجالين فإن لم يكن للعرب نثر، فَلِم التّحدي، والتحدي لا يكون إلا للأقوياء وكيف يتّحدى القرآن الكريم قوماً لغتهم كلغة الأطفال، أو أن النثر في عهدهم كان يحبو ولم يصل إلى طور الشباب والقوة ؟ ذلك منطق مرفوض وقضية خاسرة .

وفي رأيي أن القرآن الكريم كان يفهمه العرب جميعاً كما يقول الدكتور زكي مبارك لأنه نزل على قوم ربّوا في الفصاحة، ونشأوا في حلبة البلاغة، من أجل التّحدي ليكون دليلاً واضحاً على أنه ليس من كلام البشر، وإن كان نسيجه من لغتهم، وألفاظه من ألفاظهم، فإذا لم يستطيعوا التّحدي، وعجزوا عن المنافسة، فمعنى ذلك أن القرآن الكريم معجزة نَبيّه الخالدة على وجه الزمن، ومن ثم قال المؤرخ النابغة ابن خلدون في هذه القضية ما نصّه:

« إن القرآن نزل بلغة العرب، وعلى أساليب بلاغتهم، فكانوا كلهم يفهمونه ويعلمون معانيه في مفرداته وتراكيبه »[2] .

---

(١) النثر الفني/٤٦ .

(٢) مقدمة ابن خلدون/٣٦٧ ـ المطبعة الأزهرية سنة ١٩٣٠ م .

وما لي اذهب بعيداً ، والأدلّة على النثر الفنّي قبل الإسلام واضحة للعيان ، إن كتب السّيرة ، وكتب السّنة ، وروايات التاريخ المؤلفة تثبت أنه لما بعث الرسول عليه السلام جاءت إليه وفود العرب تخطب في حضرته وتشيد بفضله، وكيف تمّ له ذلك؟ أبين عشية وضحاها يتحولون إلى خطباء لُسْن يشقّقون الصخر بألسنتهم الذرّية بياناً وفصاحة ، وفخامة وجزالة؟

هذا هو الزمخشري يحدثنا عن بعض هذه الوفود فيقول :

«لما قدمت عليه (ﷺ) وفود العرب قام طهفة بن أبي زهير النّهْدِيّ، فقال: أتيناك يا رسول الله مِنْ غَوْرَيْ تِهامة، بأكوار الميس، ترعى بنا العِيس، نَسْتَحْلِبُ الصبِّير ، ونَسْتَخْلِبُ الخبير، ونستعضد البرير، ونَسْتَخْيِل الرِّهام، ونَسْتَحْيِل - أو نَسْتَجْيِل - الجَهام من أرض غائلة النِّطاء غليظة الوِطاء، قد نشف المُدْهُن، ويَبِسَ الجِعْثِن، وسقط الأمْلوج ، ومات العُسلوج، وهلك الهَدِيّ، ومات الوَدِيّ. برئنا يا رسول الله من الوثن والعَنَن، وما يُحْدِث الزمن، لنا دعوة السلام وشريعة الإسلام، ما طما البحر، وقام تِعار، ولنا نَعَمٌ هَمَلٌ أغْفال، ما تَبِضّ ببلال، ووقير كثير الرَّسَل، قليل الرِّسْل، أصابتها سنة حمراء مُؤْزِلة، ليس لها عَلَل ولا نَهَل. فقال رسول الله (ﷺ)، اللهم بارك لهم في مَحْضِها ومَخْضِها، ومَذْقِها، وابعث راعيها في الدَّثْر بيانع الثَّمَر، وافْجُر له الثَّمَد، وبارك له في المال والولد. من أقام الصلاة كان مسلماً، ومن آتى الزكاة كان مُحْسِناً، ومن شهد أن لا إله إلا الله كان مخلصاً، لكم يا بني نَهْد ودائعُ الشِّرْك، ووضائع المُلْك، لا تُلْطِطْ في الزّكاة، ولا تُلْحِد في الحياة، ولا تتثاقل عن الصّلاة»(١).

ولغرابة هذه الخطبة ، ومعرفة دلائل ألفاظها شرحها الزمخشري في كتابه «الفائق» ، ولهذا أرى من الفائدة أن نقدم شرحها موجزاً للقارىء ليكون على بيّنة من أمر هذه الكلمات العربيّة التي تعد غريبة على سمعه.

---

(١) الفائق في غريب الحديث للزمخشري/٢/٢٧٧ ، ٢٧٨ .

قال الزمخشري :

- الصبّير : السحاب الكثيف المتراكم .
- نستخلب : من الخلب ، وهو القطع والمزق .
- الخبير : النبّات .
- نستعضد البرير : أي نأخذه من شَجَرِه ، فنـأكله للجدب ، من العَضْـد وهو القطع .
- الاستخالة : أن تظنّه خليقاً بالإمطار .
- الاستحالة : النظر .
- الاستجالة : أن تراه جائلاً يعني أنا لا نستمطر إلا الرِّهام وهي ضعاف الأمطار جمع رِهْمة ، ولا ننظر إلا الى الجَهام[1] .
- النِّطاء : من النَّطِيّ ، وهو البعيد .
- المدهن : نُقْرة في صخرة يستنقع فيها الماء .
- الجَعْثَن : أصل النبات .
- الأملوج : واحد الأماليج ، وهو ورق ، وقيل : الأملوج : نوى المُقْل .
- العُسْلوج : الغصن الناعم .
- الهديّ : الهدي ، وأراد الإبل فسمّاها هَدْياً .
- الودِيّ : الفسيل[2].
- العنن : الاعتراض ، والخلاف .
- طما وطمّ : اذا ارتفع .
- تعار : جبل .
- الْهَمَل : المُهْمَلة التي لا رعاء لها ، ولا فيها من يصلحها ويهديها .
- الأغفال : جمع غُفْل ، وهي التي لا سمة عليها .
- البِلال : القدر الذي يَبُلّ .
- الوقير : الغنم الكثير .
- الرَّسَل : ما يُرْسل إلى المرعى ، وجمعه : أرسال .

---

(١) الجهام : السحاب الذي فرغ ماؤه .　　(٢) الفسيل: صغار النخل.

ـ والرِّسلْ : اللبّن .
ـ المُؤزلة : التي جاءت بالأزلْ ، وهو الضيّق .
ـ المحْض : اللبن الخالص .
ـ المخض : الممخوض .
ـ المذْق : الممذوق .
ـ الدَّثرْ : المال الكثير .
ـ اليانع : المُدْرِك .
ـ الودائع : العهود ، جمع وديع .
ـ وضائع الملك : ما وضع عليهم في ملكهم من الزكوات .
ـ لط وألط : إذا دفع عن حقّ يلزمُه وستره .

تعليق

أليست هذه الخطبة أو الكلمة التي ألقاها ذلك العربي رئيس وفد قومه أمام النّبي (ﷺ) تدلّ دلالة واضحة على أن النثر الجاهلي بلغ أشدّه قبل الإسلام ؟

أليست هذه الخطبة نثراً جاهلياً بدليل أن كلماتها من البيئة ، وأن معانيها ليست سطحية أو ساذجة ، لأنها مملوءة بالأساليب البلاغية من استعارة وتشبيه ومجاز ؟

أليست هذه الخطبة دليلاً ساطعاً ينقض كل ما بناه الدكتور طه حسين في هدمه للنثر العربي الفني قبل الإسلام مع اعترافه بالنثر السطحّي الساذج الذي تقذف به الألسنة في شؤون الحياة ، أليست هذه الخطبة قمة في النّثر الفني الذي ارتبطت معانيه ، وتآخت ألفاظه ، ووضحت دلالته؟ حقاً ، إن ألفاظه غير مألوفة ، لأنها جزلة ضخمة ترى عليها مسحة البيئة الجافّة من الألفاظ الخشنة والمعاني البدوية ، وإن كان نسجها فناً خالصاً ، ممزوجاً بالمعاني الفنيّة من ألوان البلاغة المختلفة .

أقول : ما الفرق بين هذه الخطبة ، ومعلقة امرىء القيس مثلاً من حيث جلالة الألفاظ ، وخشونة الكلمات ، وصعوبة إدراك معانيها ؟ حقاً إن هذه

الخطبة قد تقلل من قيمة النثر الأدبيّة أو الفنيّة ، لأن بعض النقاد يعيب هذا السجع في النص النثري الأدبيّ .

والواقع أن السجع مُتَّهَمٌ بريء ، لأن سجع الجاهلية ليس ألفاظاً مترادفة أو كلمات لا تحوي معنى ، ولا تحمل فكراً .

وقديما أشاد الجاحظ بالسجع الذي يأتي عفو الخاطر بدون تكلّف ، ويأخذه معناه بكل تلطف ، حينما قال : « ونحن - أبقاك الله - إذا ادّعينا للعرب أصناف البلاغة من القصيد والأرجاز، ومن المنثور والاسْجاع، ومن المزدوج وما لا يزدوج ، فمعناه العلم على أن ذلك لهم شاهد صدق من الديباجة الكريمة والرونق العجيب ، أو السّبك والنّحْت الذي لا يستطيع أشعر الناس اليوم ولا أرفعهم في البيان أن يقول مثل ذلك إلاّ في اليسير ، والنَّـذْر القليل »[1] .

رأي الأستاذ إبراهيم مصطفى :

لا ينكر الاستاذ المرحوم إبراهيم مصطفى وجود النثر في العصر الجاهليّ ، ولكنه يضيف إلى هذا النثر بعض الخصائص الشّعرية ، مما يَـدُلّ على أن النثر الجاهليّ في نشأته تأثر بالشّعر العربيّ الجاهليّ .

وفي رأي الأستاذ إبراهيم مصطفى أن درس قواعد اللغة وخصائصها هو الذي يوضح سبيل نشأة النثر العربي .

يقول : « ووجه ذلك أن أنواع الأدب تتميَّز بخصائص لغوية تظهر في بناء اللفظ ، وفي تأليف الجملة ، ثم يسري بعضها إلى اللغة ، ويقوم شاهداً على حياة هذا النوع، ومقدار انتشاره فيها، وغلبته عليها، فإذا درسنا خصائص كل نوع ثم تتبعنا وجودها في لغةٍ ما استطعنا أن نعرف صلة هذا النّوع بتلك اللغة ، ومقدار تلك الصِّلة .

ولا أريد الإطالة بالتدليل على صحَّة هذا النَّظَر ، وعلى أن في اللغة حياة ، وأنها تحمل تاريخها ، وأنها قد تؤرخ ما حولها ، فأولى أن توحى

(١) البيان والتبين ٢٩/٣ .

بتاريخها ، بل أرى خير مقنع لي ولك أن نحاول فتح هذا الباب في بحث اللغة العربية والنثر العربي ، وننظر ما يهدى إليه من نتيجة »[1] .

وقد أثبت أستاذنا إبراهيم مصطفى أن مؤرخي الأدب يعترفون « أن النثر في الأدب الجاهليّ لا يتميَّز كثيراً عن النثر الإسلامي، وقد يكون أقوى منه، وأمثلته ما ورد في تاريخ الأدب من كلام الوفود ، ومن وصف الأعراب بواديهم وما يعتريها من جَدْب أو سحاب أو غيث ، ومن التندُّر بوصف الرجال أو النساء ، ويقيسون ذلك كله إلى النثر الإسلامي ، فلا يكادون يثبتون فرقاً ، فيتقدمون بتاريخ النثر إلى زمن الجاهلية ، ويضعونه في صف الشعر أو هو أسبق وجوداً .

وأساس هذا الرأي قبول ما روى عن العرب من نثر والثقة به »[2] . على أن أستاذنا اهتم بالتاريخ للنثر من خلال تسرب الخصائص الشعرية إلى هذا النثر ، وضرب لذلك نماذج عديدة نذكر منها ما يلي :

---

(١) انظر نشأة النثر العربي، بحث للأستاذ إبراهيم مصطفى، نشر في مجلة كلية الآداب - جامعة القاهرة، المجلد الأول، مايو سنة ١٩٣٣ ص ٦٨ وما بعدها.

(٢) انظر بحث في نشأة النثر العربي/ ٦٩ .

نماذج لأساليب نثرية متأثرة بالأساليب الشعرية

١ ـ أُجيز في الشعر تنوين الممنوع من الصرف وذلك معروف مشهور حتى قيل : « ويصرف الشاعر ما لا ينصرف » ، وقد سرى ذلك إلى النثر أيضاً . . وقد أحسَّ النحويون المتقدمون أن تنوين الممنوع من الصرف سرى إلى النثر من الشعر .

ويستدل على ذلك بقول للسيُّوطي في همع الهوامع » .
« وزعم قوم : أن صرف ما لا ينصرف مطلقاً أي في الاختيار لغة لبعض العرب حكاها الأخفش، قال: وكان هذه لغة الشعراء، لأنهم قد اضطرُّوا إليه في الشعر فجرت ألسنتهم على ذلك في الكلام »[1] .

٢ ـ ممَّا يستدعيه الشعراء ، أو يُلْجِىءُ إليه استبدال صيغة بأخرى فقد يوضع اسم الفاعل واسم المفعول والمصدر ، كُلٌّ موضع الآخر في الشعر .
وسبيل الكلام والأصل فيه أن تستعمل كل صيغة فيما بنيت له ولكن الشاعر إذا أمن اللبس لم يبال أي صيغة استعمل حتى بان المعنى واستقام له الوزن ، وقد سرى ذلك إلى النثر أيضاً . . . وعلى قياس هذا نَفْهَم سرَّ استعمالهم فعيل مرة بمعنى فاعل ، وأخرى بمعنى مفعول في الشعر والنَّثر على حدٍّ سواء . . . .

---

(١) همع الهوامع ١/١٢١ تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون ـ عبد العال سالم مكرم .

٣ ـ الازدواج : ففي درَّة الغوَّاص للحريريِّ : « وقد نطقت العرب بعدَّة ألفاظ غيرت مبانيها لأجل الازدواج ، وأعادتها إلى أصولها عند الانفراد فقالوا : الغدايا والعشايا إذا قرنوا بينهما ، فإذا أفردوا الغدايا ردُّوها إلى أصلها فقالوا : الغدوات .

٤ ـ لغة الحديث يكثر فيها الحذف ، والاستغناء ببعض القرائن عن شيء من اللفظ ، وقد أشار صاحب الكتاب إلى بعض هَذا في قوله : « وهم يقولون سِيرَ لَيْلٌ ، يريدون ليل « طويل » ، وذلك أنك تحسُّ في كلام القائل لذلك من التطويح والتطريح والتفخيم والتعظيم ما يقوم مقام قوله« طويل » .

وفي رأي أستاذنا الفاضل أن لغة الحديث « هي الأسلوب السائد في النثر العربي قبل الإسلام » .

وفي لغة الحديث : « البديهة الصائبة ، والجواب المسكت ، والحِكَم المرسلة ، والكلمة المأثورة .

والخطب إنما هي نوع من لغة الحديث ، والخطابة لها كل خصائصها ومزاياها ، وهي أوسع ميدان للبلاغة ، وأجلى مظهر لها ، وأقرب سبل الكلام إلى ملك القلوب وتصريفها .

فلغة الحديث إذاً أدب قيم واسع ، دقيق محكم ، ربما احتاج من المهارة والقدرة ما لا تحتاج إليه الكتابة .

كذلك كان الحال عند العرب ، حسٌّ دقيق في اللغة ، ومَلَكَةٌ قوية في الكلام ، ومواقف ذات خطر لديهم من مفاخرة ومنافرة ، ومن بَعْث إلى الحرب أو دعوة إلى السلم ، وحافظة تعي ما يقال ، وتروي ما يحفظ ، وكل هذا أتيح للعرب أدباً لسانيّاً قويّاً يمثل في الجواب الصائب ، والحكمة المرسلة والخطبة البالغة ، وهو حظٌّ من البلاغة عظيم »[١] .

---

(١) انظر بحث : نشأة النثر العربي في مجلة كلية الآداب ـ جامعة القاهرة مجلد أول جزء أول من ص ٧٥ ـ ٨٤ بتصرف .

وفي ضوء هذه النصوص نستطيع أن نقول : إن النثر الجاهلي أعلن عن وجوده في الخطب والحكم ، والأجوبة والأمثال في مجال الحرب والسّلم ، وفي مجال الوفود والأسواق الأدبيَّة ، مما جعل هذا النثر قرين الشعر في فنِّه وبلاغته ، وفي تصويره المبدع ، وألفاظه الرَّنانة ، ومعانيه الفطرية التي نتجت عن البيئة التي نشأ فيها الناثر أو الشاعر .

على أن هناك إلى جانب هذا النثر المتمثل في الخطب ، والمنافرة ألواناً أخرى يستشهد بها اللغويون والنحويُّون . وقد بينها الفارابي في مقدمة كتابه ديوان الأدب « فقال :

ـ والحكمة أن يكون صنع كامن في مصنوع فيستنبط ، فيودع لفظة تشتمل عليه .

ـ والسَّجع ، حكمة ألفت في لفظ قويل بعضه ببعض ، وليس بينه وبين الشعر إلاَّ الوزن ، وترك الوزن .

ـ والمثل : ما تراضاه الخاصة والعامة في لفظه ومعناه حتى ابتذلوه فيما بينهم ، وفاهوا به في السَّراء والضَّراء ، واستدرُّوا به المتمنع من الدّر ، وتوصلوا به إلى المطالب القَصِيَّة ، وتفرَّجوا به عن الكُرَب المكربة ، وهو من أبلغ الحكمة ، لأن الناس لا يجتمعون على ناقص أو مقصِّر في الجودة أو غير مبالغ في بلوغ المدى في النَّفاسة .

والنادرة : حكمة صحيحة تؤدى كما يؤدّى عنه المثل ، إلاَّ أنها لم تشع في الجمهور ، ولم يختزنها إلاَّ الخواصّ ، وليس بينها وبين المثل إلاَّ الذّيوع وضدُّهُ »(١) .

وللأستاذ أحمد أمين في كتابه : « فجر الإسلام » دراسة ممتعة عن الأمثال العربية في العصر الجاهلي .

وقد عقد مقارنة بين الشعر والأمثال ، وبيّن أن الأمثال لها ميزة على

---

(١) مقدمة ديوان الأدب للفارابي / ٧٤ .

الشعر نفسه على الرغم من افتنان النقاد والأدباء به « لأن الشعر تعبير طبقة من الناس يعدُّون في مستوى أرقى من مستوى العامة ، فالشعراء يعبرون عن شؤون القبيلة التي ارتسمت في أذهانهم الراقية ـ نوعاً من الرُّقي ـ وهم يعبرون بألفاظ مصقولة صقلاً يستوجبه الشعر .

أما الأمثال فكثيراً ما تنبع من أفراد الشعب نفسه ، وتعبِّرُ عن عقلية العامة » . . . « ومن أجل هذا كانت دلالة الأمثال على لغة الشعب أصدق من دلالة الشعر » . وفي الموضع نفسه يبين أن كثيراً من الأمثال العربية تنبت من البيئة، ولذلك، فإن البيئة الصحراوية تتسم بألفاظ تدلُّ على ما في الصحراء من حيوانات، وكلأ، ونُؤى، وبَرْق، ورعد، الخ .

فالعرب « قد أكثروا من الأمثال المتعلِّقة بالإبل وشؤونها ، فقالوا : « استنوق الجمل » ، و « إنما يجزى الفتى ليس الجمل » ، و « أغدَّة كغُدَّة . البعير » ؟ . . . .

وإن أنت استعرضت أمثال قريش رأيت فيها ما يدلُّ على أنها قبيلة تجارية كقولهم : « لا في العير ولا في النَّفير ونحو ذلك » .

على أن الأستاذ أحمد أمين يرى أن الأمثال أصدق دلالة على الحياة الاجتماعية الجاهلية ، من الشعر كما دكر ذلك من قبل ، ولكنه مع ذلك أثبت أن استخلاص المثل الجاهليِّ من الإسلاميّ شابته معوقات ، وخالطته صعوبات، قال في نصه:

« وقد عاق عن الاستفادة من الأمثال العربيّة من هذه الناحية أمران :

الأول اختلاط الأمثال الجاهلية بأمثال الإسلام اختلاطاً كبيراً حتى ليصعب التفريق بينهما ، وهذه أول خطوة يجب التحقيق منها قبل الاستقلال بالأمثال ، وقد رووا أن عِلَاّقة الكلابيّ جمع الأمثال في عهد يزيد بن معاوية وقد كان هذا يفيدنا كثيراً لو وصل إلينا ، إذ لا يكون قد ذكر فيه الاّ أمثال الجاهليَّة ، وصدر الاسلام ، ولكنه لم يصل .

الأمر الثاني : أن أكثر جامعي الأمثال رتَّبوها على حسب حروف الهجاء

فجعلوا ما أوله ألف ، ثم ما أوله باء وهكذا ، ولم نر فيما نعلم أحد رتَّبها على حسب أصولها الاجتماعية كأن يجمع الأمثال التي تتعلق بالغنى والفقر وبالعمر وأطواره ، وبالزوّاج والأسرة ، وبالعمل والتجارة . . . » ألخ .

وعلى الرغم من هذه الصعوبات فقد تكون هناك دلائل تشير إلى زمن المثل مثل الأمثال التي «قيلت من حوادث تاريخية : كجزاء سنمار ـ ومواعيد عرقوب ، ولا في العير ولا في النفير ، وتسمع بالمُعَيْدِيَ خيرٌ من أن تراه » .

وقد تدلّ الحياة الاجتماعيةعلى عصر المثل مثل : « انصر أخاك ظالما أو مظلوماً» ، فإن ذلك هو الخلق الجاهليّ لا الإسلاميّ»[1] .

ويختم الأستاذ أحمد أمين حديثه عن الأمثال بقوله :

« والعرب حقاً أجادوا في هذا النوع من الأدب ، وخلفوا لنا ما يدلُّ على عقليّتهم أكثر مما يدلنا الشعر والقصص .

ويظهر أن سبب ذلك أنه يوافق مزاجهم العقليّ وهو النظر الجزئي الموضعيّ لا الكلِّي الشامل ، لأن المثل لا يستدعي إحاطة بالعالم وشؤونه ولا يتطلّب خيالاً واسعاً ولا بحثاً عميقاً ، إنما يتطلب تجربة محليَّة في شأن من شؤون الحياة»[2] .

القصص :

والقصص لون من ألوان النثر فهل عرف العرب الجاهليون هذا اللون من النثر الفني ؟

يثبت الأستاذ أحمد أمين أن للعرب قصصاً، ولها دلالة كبيرة على عقليتهم وقسَّم ما ورد من قصص في الجاهلية إلى عدة أنواع :

* أيام العرب :

« وهي تدور حول الوقائع الحربية التي وقعت في الجاهلية بين القبائل كيوم داحس والغبراء ، ويوم الفجار ، ويوم الكلاب ، أو بين بعض العرب

---

(١) فجر الإسلام/ ٦٠ بتصرف.
(٢) فجر الإسلام/٦٤.

وأمم أخرى كيوم ذي قار ، وكان بين شيبان والفرس وانتصر فيه العرب » . . .

وكانت هذه القصص موضوع العرب في سَمَرِهم في جاهليتهم وفي إسلامهم .

« قيل لبعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما كنتم تتحدثون به إذا خلوتم في مجالسكم ؟ قال : كنا نتناشد الشعر ، ونتحدث بأخبار جاهليتنا » .

* نوع : « أخذوه من أمم أخرى وصاغوه في قالب يتفق وذوقهم كقصة شريك من المنذر » . . . .

* نوع : متعلق بأحاديث الهوى ، وهذا كثير في كتب الأدب ، كالذي رووا من قصة المنخل اليشكريّ مع المتجردة زوج النعمان .

وما كان بينهما من علاقة ، وما قيل في ذلك من قصص . وما روى من أشعار »(1) .

وقبل أن نختم هذا البحث نحب أن نشير هنا إلى أن النثر الجاهلي استوى عوده ، وبلغ أشدَّه في العصر الإسلامي إلى الحدّ الذي جعله يباري الشعر، وينافسه في خياله، ويجارى تصويره في أساليبه من حيث تدفّق العاطفة، وجمال التعبير، بل لا نبالغ إذا قلنا أن بعض النقاد فضله على الشعر وميَّزه بميزات نتحدث عنها في النقطة التالية:

شرف النثر وفضله

أمتعنا أبو حيَّان التوحيدي بذكر هذا الشرف . وعرض هذه الفضيلة قال : « قال شيخنا أبو سليمان : الكلام ينبعث في أوَّل مبادئه إمَّا من عفو البديهة ، وإمَّا من كدِّ الرَّويَّة ، وإمَّا أن يكون مركَّباً منهما ، وفيه قواهما بالأكثر والأقل ، ففضيلة عفو البديهة أنه يكون أصفى ، وفضيلة كد الروية أنه يكون أشفى، وفضيلة المركَّب منهما أن يكون أوفى، وعيب عفو البديهة أن تكون صورة العقل فيها أقل ، وعيب المركب منهما بقدر قسطه منهما : الأغلب والأضعف .

على أنه إن خلص هذا المركَّب من شوائب التكلُّف ، وشوائن التعسُّف

---

(1) انظر هذه النصوص في فجر الاسلام/٦٦ ، ٦٧ ، بتصّرف .

كان بليغاً مقبولاً ـ رائعاً حلواً، تحتضنه الصُّدور، وتختلسه الآذان، وتنتهبه المجالس ، ويتنافس فيه المنافس بعد المنافس .

والتفاضل الواقع بين البلغاء في النظم والنثر إنما هو في المركَّب الذي يسمَّى تأليفاً ورصفاً ، وقد يجوز أن تكون صورة العقل في البديهة أوضح ، وأن تكون صورة الحس في الرَّويَّة ألوح . . . . . .

وسمعت أبا عابد الكرخي صالح بن عليّ يقول : النثر أصل الكلام والنظم فرعه ، والأصل أشرف من الفرع ، والفرع أنقص من الأصل ، لكل واحد منهما زائنات ، وشائنات ، فأمَّا زائنات النثر فهي ظاهرة لأن جميع الناس في أوَّل كلامهم يقصدون النثر ، وإنما يتعرَّضون للنظم في الثاني بداعية عارضة، وسبب باعث، وأمر معيَّن:

قال: «ومن شرفه أيضاً أن الوحدة فيه أظهر، وأثرها فيه أشهر، والتكلف منه أبعد ، وهو إلى الصفاء أقرب ، ولا توجد الوحدة غالبة على شيء إلا كان ذلك دليلاً على حسن ذلك الشيء وبقائه ، وبهائه ونقائه » .

قال : « ومن شرف النثر أيضاً أنه مبرّأ من التكلف ، منزَّه عن الضرورة ، غني عن الأعتذار والافتقار ، والتقديم والتأخير، والحذف والتكرير، وما هو أكثر من هذا مما هو مُدَوَّن في كتب القوافي والعروض لأربابها الذين استنفدوا غايتهم فيها » .

وقال عيسى الوزير :

«النثر من قِبَل العقل، والنظم من قِبَل الحسّ، ولدخول النّظم في طيّ الحس دخلت إليه الآفة، وغلبت عليه الضرورة، واحتيج إلى الأغضاء عما لا يجوز مثله في الأصل الذي هو النثر».

وقال ابن طرَّارة:

«النثر كالحرَّة، والنظم كالأَمة ، والأَمَةُ قد تكون أحسن وجهاً، وأدمث شمائل ، وأحلى حركات إلا أنها لا توصف بكرم جوهر الحرَّة ، ولا بشرف عِرْقها ، وعِتْق نفسها ، وفضل حيائها .

وقال : ولشرف النثر ، قال الله تعالى في التنزيل : ﴿ إذا رَأَيْتَهُم حَسِبْتَهُم لُؤْلؤاً مَنْثوراً ﴾[1] ، ولم يقل : « لؤلؤاً منظوماً »[2] .

وبعد، فنكتفي بهذا القدر من الحديث عن النثر الجاهلي لِنُبيِّن أن هذا النثر استقبل القرآن الكريم بعد أن بلغ الذروة في الفصاحة والبلاغة كما استقبله الشعر بعد أن بلغ الغاية في التصوير والإبداع .

ودارت معركة الإعجاز بينهما وبين القرآن الكريم فلم يستطيعا أن يصلا إلى ركبه، وهيهات، فمن الذي يستطيع أن يصل إلى النجوم في عليائها، وأن يتطاول إلى الكواكب في سمائها، وقد كان القرآن الكريم كذلك، سماء، آياته فيها نجوم ، وبقي النثر والشعر في الأرض بعد أن كان لهما صولة ، ولسلطانهما دولة .

وحرصت على تسجيل نشأة النثر العربي، لأن القرآن الكريم نثر على رسوم النثر الجاهلي وتقاليده، لأنه من صنع الله الذي أتقن كل شيء ومجال المعارضة القرآنية للنثر أقوى من الشعر الذي تدخله الضرورات، وتكثر فيه الزحافات ، وهذا وقد قامت لهجة قريش قبل الإسلام بدور كبير لتهذيب ما تسمع من ألسنة العرب في مواسم الحج .

ومن أجل هذا التهذيب الذي قامت به كانت لغتها أصفى اللغات وأحسنها .

ومن ثم قال ابن فارس : «أجمع علماؤنا بكلام العرب والرّواة لأشعارهم ، والعلماء بلغاتهم وأيامهم ومحالّهم : أن قريشاً أفصح العرب ألسنة وأصفاهم لغة» . . .

إلى أن يقول : «ولم تزل العرب تعرف لقريش فضلها وتسمّيها أهل الله ، لأنهم الصَّريح من ولد إسماعيل عليه السلام، لم تشبهم شائبة ولم تنقلهم عن مناسبهم ناقلة، فضيلة من الله ـ جل ثناؤه ـ لهم وتشريفاً إذ جعلهم رهط نبيّه

---

(١) الإنسان/١٩ .

(٢) انظر هذه النصوص في كتاب : الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي ١٣٢/٢ ـ ١٣٥ بتصّرف .

الأدنين، وعِتْرَته الصالحين».

ثم يقول : « وكانت قريش مع فصاحتها ، وحسن لغاتها ورِقَّة ألسنتها إذا أتتهم الوفود من العرب تخيَّروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم وأصفى كلامهم ، فاجتمع ما تخيَّروا من تلك اللغات إلى نحائزهم وسلائقهم التي طبعوا عليها ، فصاروا بذلك أفصح العرب »[1] .

ولنا أن نتساءل : ما الفصاحة التي اتَّسمت بها قريش ، والتي ميَّزها بها ابن فارس ؟

مدلول الفصاحة في نظري هو كثرة الاستعمال ، لأن « الكلمة اللغوية كالعملة في خزانة « البنك » لها قوة التعامل ، ولكنها لا تمثل تعاملاً بالفعل أما الكلمات الواقعية أي في الكلام فهي عملة جارية سيَّارة لها نشاطها وقيمتها الواقعية »[2] ؟ .

ولم يغب هذا المعنى عن ذهن بعض علماء العربيَّة الأفذاذ كالزمخشري الذي سأله سائل عن حديث عمر رضي الله عنه : «لولا الخلِّيفي لأذنَّت أي لولا كثرة الاشتغال بالخلافة، والذهول بسببها عن تعهد أوقات الآذان لأذنت، أهو قياسي أم سماعي؟ فقال: هذا الباب كثير الاستعمال فينبغي أن يكون قياسيّاً»[3] .

قال الخوارزميّ، قال العمراني : سألت صاحب الكشاف، فقلت: الفعِّيلي أهو على القياس أم مقصور على السماع ؟ فقال : هو كثير الاستعمال ، فينبغي أن يكون قياسياً[4] .

وفي ضوء هذا المقياس نستطيع أن نقول : إن فصاحة لهجة قريش جاءت من كثرة الاستعمال للغتها فلهجة قريش كما يقول الرافعيّ : « هي

---

(١) الصاحبي ٣٣ ، ٣٤ بتصرف .

(٢) اللغة بين الفرد والمجتمع/١٩ تأليف أوتوجسبرس ، ترجمة الدكتور عبد الرحمن أيوب نشر مكتبة الإنجلو المصرية .

(٣) شرح الجاربردي على الشافية/٦١ دار الطباعة العامرة سنة ١٣١٠ هـ .

(٤) حاشية ابن جماعة على الشافية/٦٦ ـ الطبعة نفسها .

القبيلة الأخيرة في تاريخ الفصاحة . . . وذلك أن قُريشاً كانوا ينزلون من مكة بواد غير ذي زرع لا يستقل أهله بتكاليف الحياة . . . وكانت الكعبة شرّفها الله وجهة العرب، وبيت حجّهم قاطبة في الجاهليّة، فكان لكل قبيلة منهم صنم يحجّون إليه حتى قيل : إنهم كانوا يقربون القرابين في الكعبة من الإبل والغنم لثلاثمائة وستين صنماً .

وكانت تلك القبائل بطبيعتها متباينة اللّهجات . فكان قريش يسمعون لغاتهم ويأخذون ما استحسنوه فيديرون به ألسنتهم، ويجزون أهل على قياسه. . . ولو كانوا بادين كسائر القبائل ما فعلوه ، ولكن نوع الحضارة الذي اكتسبوه من تاريخهم ألان من طبائعهم ، وكسّر من صلابتهم » . . . إلى أن يقول : « فلما اجتمع لهم هذا الأمر ارتفعت لغتهم عن كثير من مستبشع اللغات ومستقبحها »[1] .

على أن الرافعيّ تملؤه الدهشة ، ويسيطر عليه الإعجاب في تهذيب قريش للغة العرب في مدة زمنية لا تتجاوز مائة سنة قبل الهجرة .

وكأنّ الرافعيّ يحسُّ بكل مشاعره أن هذه اللغة القرشية هيأتها الأقدار لحمل هذا التهذيب انتظاراً لميلاد المعجزة الكبرى ، معجزة القرآن الكريم ، يقول ما نصّه : « ولا يسع المتأمل في الأدوار التي تعاقبت على قريش في تهذيب اللغة إلّا أن يستسلم للدهشة ، ويحار من أمر هذا التعاقب ، فإنّه كالسُّلم المدرجة تنتهي الدرجة منها إلى درجة على نمط متساوق من الرُّقيّ ، إن لم يكن عجيباً في تاريخ أمّة متحضرة ، فهو عجيب على الخصوص في تاريخ العرب ولا سيّما إذا اعتبرنا مبدأ تلك النهضة ، وانّها لا تتجاوز مائة سنة قبل الهجرة إلى مائة وخمسين على الأكثر ، فلا بدَّ من التسليم بأنها حادثة كونيَّة من خوارق النِّظام الطبيعيّ ، ظهرت نتيجتها بعد ذلك في نزول القرآن الكريم بلغة قريش ، وهو أفصح الأساليب العربية بلا مراء »[2] .

---

(١) انظر تاريخ آداب العرب للأستاذ مصطفى الرافعيّ ، ط ثانية ، نشر المكتبة التجارية الكبرى بمصر ١/ ٨٥ ، ٨٦ .

(٢) المرجع نفسه والصفحة .

ومن دون شك ، فإن هذه اللغة سارت وفق القواعد ، وعلى نسج الصيغ التي حفظت اللغة العربيَّة من التدهور والانحلال .

ولا أدلُّ على ذلك من هذا السمو الرائع في بلاغة التراكيب ، وفصاحة الألفاظ .

وفي رأيي أن ابن فارس كان على حق ـ رغم إنكار المعارضين ـ حينما ذكر أن العرب في جاهليتهم كانوا على وعي تام بقواعد اللغة وقوانينها وجملها وتراكيبها ، لأن السليقة قد تخطىء ، ومن حوادث أخطاء السليقة عدة أخبار روتها كتب الأدب ، وسجلتها مصادر اللغة .

يقول ابن فارس ما نصه :

« فإن قال قائل » : قد تواترت الروايات بأن أبا الأسود أول من وضع العربية وأن الخليل أوَّل من تكلم في العروض .

قيل له : نحن لا ننكر ذلك، بل نقول: إن هذين العِلْمين قد كانا قديماً وأتت عليهما الأيَّام، وقلّا في أيدي الناس، ثم جدَّدهما هذان الإمامان».

إلى أن يقول :

« وأما العروض فمن الدليل على أنه كان متعارفاً معلوماً اتفاق أهل العلم على أن المشركين لما سمعوا القرآن قالوا ـ أو من قال منهم ـ: إنه شعر ، فقال الوليد بن المغيرة منكراً عليهم : « لقدعرضت ما يقرؤه محمد على أقراء الشعر هَزَجِه ورَجَزِه ، وكذا وكذا فلم أره يشبه شيئاً من ذلك » .

أفيقول الوليد هذا وهو لا يعرف بحور الشعر ؟ »[1] .

والذي نراه في ضوء هذا النص أن فصاحة قريش كانت بسبب وقوفها على أسرار الصيغ ، وتناسق التراكيب التي تقوم على العامل العقلي في الترتيب والتنظيم .

---

(١) الصاحبي/١٣ ، ١٤ .

« إن الرجوع إلى العقل البشريّ أقوى ضمان في سبيل تحديد اللغة الفصحى ، هذا العقل يقول بوجود نظام للجملة لا يمكن تغييره ، هو لا يبحث في الحروف والألفاظ ، ولكنه يبحث في العامل ، والعامل هو الإعراب أي بالإعراب تصبح كل كلمة قابلة لأن تصير فصيحة شرط أن تدخل في جملة مفيدة ، هي عاميّة إذا استعملت في ترتيب يقوم على الكلمة ، وهي فصيحة إذا استعملت في ترتيب يقوم على الجملة ، وارتبطت بسابقات لها ولاحقات بحيث تنشأ الوحدة الإعرابية أو النحوية . . . .

لا إعراب في العامية لأنها بنت الحواس ، والإحساسات تخرج فيها كالقذائف مستقلّة بعضها عن بعض ، هي لا تقبل العوامل ، ولكن العقل يميل أصلاً إلى الثبات والاستقرار . . . فقوانين العقل راسخة »[1] .

إذن النثر الفني الجاهلي الذي يتمثل في لغة قريش أو لهجتها هو نثر يقوم على أسس ، وينبني على أصول ، وليس كلاما يقال بدون ترتيب أو تنسيق وإلا لما استحقّ هذا النثر أن يكون موضع تحدٍّ من القرآن الكريم .

على أن قريشاً ولهجتها لا تملك من رصيد الشعر ما يجعلها موضع تحدٍّ من القرآن، لأن الرواة يذكرون أن بضاعة قريش من الشعر قليلة ، وعلى قلتها فهي ضعيفة رديئة ، ولا أدلّ على ذلك مما ذكره ابن رشيق في كتابه « العمدة » بصدد تنقل الشعر في القبائل ، وإذا بحثنا في نصوصه التي قدمها نجد أن الشعر كان في الجاهلية في ربيعة، فكان منهم مهلهل بن ربيعة، واسمه عديّ، وقيل : امرؤ القيس ، وكان مهلهل أول من قصّد القصائد ، وهو خال امرىء القيس بن حجر الكندي الشاعر ، وجدّ عمرو بن كلثوم الشاعر أبو أمية .

ومنهم المرقّشان ، والأكبر منهما عمّ الأصغر ، والأصغر عمّ طرفة بن العبد ثم قال ابن رشيق : « ثم تحول الشعر في قيس ، فمنهم النابغتان ، وزهير بن أبي سلمى . . . ويختم ابن رشيق حديثه عن القبائل العربية التي تنقل فيها الشعر بقوله :

---

(١) فلسفة اللغة / ٢٣٦ للأستاذ كمال يوسف الحاج ط أولى ـ دار النشر للجامعيين .

« ثم استقرّ الشعر في تميم ، وكان منهم أوس بن حجر شاعر مضر في الجاهليّة. لم يتقدمه أحد منهم حتى نشأ النابغة وزهير فأخملاه .

وبقي شعر تميم في الجاهلية غير مدافع »[1] .

أليس معنى هذا أن الشعر لم يكن له سلطان في قريش؟

حقاً : إن هؤلاء الشعراء نظموا شعرهم ، وعَبّروا عن آرائهم ، وجسّدوا مشاعرهم وعواطفهم بلغة قريش أو بلهجتها ، لأن لغة قريش في هذه الفترة توحّدت فيها لهجات العرب ، وكانت القمة في الفصاحة بين اللهجات للأسباب التي ذكرتها من قبل .

ولهذا لا نتفق مع الدكتور طه حسين ومن نسج على منواله من المستشرقين في إنكارهم الشعر الجاهليّ لأنه لم ينشأ في قريش التي نزل القرآن بمعظم لغتها ، وفاتهم أن قريشاً هي التي طبعت هذا الشعر الجاهلي بطابعها اللغوي بعد أن تمّ لها التهذيب ، وأصبحت اللغة النموذجية الأدبية للعرب جميعهم سواء كانوا من الجنوب أو من الشمال هذه قضية واضحة للعيان ، لا ينكرها إلاّ مدّع حقود .

على أنه من الحق أن نقول : إن القرآن الكريم لم تنزل كل صيغه وتراكيبه بلهجة قريش وحدها ، وإنما نزل معظمه بلهجة قريش ، وفيه من لهجات العرب الأخرى ظواهر لغوية ونحوية ، جاءت من أجل أن يكون التّحدي للغة العرب جمعاء ، وليس للغة قريش وحدها ، ليكون التّحدي أتم ، وإظهار المعجزة أبلغ .

وفيما يلي نوضح بالتفصيل هذا الموضوع ليكون القارىء أو الدارس على بينة من أمر هذه اللهجات بالنسبة للقرآن الكريم .

---

(١) العمدة/٨٦ ـ ٨٨ بتصّرف .

القرآن الكريم بين لهجة قريش واللهجات العربية الأخرى

حقاً : إن لهجة قريش أو لغتها استطاعت أن تنتصر على هذه اللهجات ، وتصبح لغتها هي اللغة الأدبية النموذجية التي كانت أهلاً لأن ينزل بها القرآن الكريم ، ومع ذلك فإن الدّارس للقرآن الكريم ،والمتتّبع لألفاظه ، وحروفه بما فيها من جَهْر وهمس ، وتخفيف وتشديد وفتح وإمالة ، وفكٍّ وإدغام يجد أن القرآن الكريم بقراءاته المتعددة ضم كثيراً من لهجات العرب السائدة وقت نزوله، ولذلك حكمة أشرت إليها في كتاب «أثر القراءات القرآنية في الدراسات النحوية» حيث ذكرت ما نصه: «لِمَ لَمْ يلتزم القرآن الكريم لهجة قريش وحدها لتكون قراءة الجميع ؟ وبذلك يغلق الباب أمام القراءات التي لا تكون دعامتها لهجة قريش .

أقول : لو كان الأمر كذلك لما تَمّت المعجزة ، وادّعى كثير من الكافرين المكابرين أن القرآن الكريم نزل بالأفصح ممايعزّ على الفصحاء أن يأتوا بمثله ، ولو نزل بالفصيح وحده لكان من الممكن للفصحاء من القبائل الأخرى أن يأتوا بمثله » .

وليقطع القرآن الكريم دابر هؤلاء المغرضين نزل بعضه بهذه اللهجات غير لهجة قريش ، ليكون تحدّيه أتم ، وقدرته أبلغ في باب الإعجاز[٢]

---

(١) طبع المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة . طبعة أولى ، ومؤسسة الصّباح للنشر في الكويت طبعة ثانية/١٦ وما بعدها تأليف د/عبد العال سالم مكرم .

(٢) أثر القراءات القرآنية في الدراسات النحوية/١٦ ، وما بعدها .

ولذلك قال ابن الجَزَرِيّ : « لو جاء كله بالأفصح لكان على غير النمط المعتاد من كلام العرب من الجمع بين الأفصح والفصيح ، فلا تتم الحجة في الإعجاز ، إذ يقال مثلاً : إنه جاء بما لا قدرة للعرب على جنسه ، كما لا يصح أن يقول البصير للأعمى قد غلبتك بنظري لأن الأعمى يقول له : إنماتتم تلك الغلبة لو كنت قادراً على النظر ، وكان نظرك أقوى من نظري ، أمّا إذا فُقد أصل النظر ، فكيف تصحّ مني المعارضة ؟ »[1] .

على أن هناك ناحية أخرى غير الإعجاز ، وهي الانتفاع بالقرآن الكريم وحفظه ، والترغيب في تلاوته ، ومداومة النظر فيه ، وذلك لو كان بلغة قريش وحدها لما استطاعت هذه القبائل أن تحقق هذه الغاية ، لأنه بلهجة غير لهجتها .

وموضوع القراءات القرآنية ، وكيف نشأت ، وكيف تطورت وأقسامها من قراءات ، سبعية وغير سبعية ، متواترة أو شاذة ، وما دار حولها من نقاش ، وما حدث في ميدانها من حوار كل ذلك نجدْه في مقدمة « معجم القراءات القرآنية »[2] فمن أراد أن يَقِفَ بالتفصيل على هذه القراءات ، فقد ضم « معجم القراءات » القراءات القرآنية متواترها وشاذّها ومعظم هذه القراءات مرجعها إلى اللهجات .

ولا أقول : إن القراءات القرآنية قرئت وَفْق اللهجات المختلفة على حسب ما تنطق الألسنة ، لأن ذلك يؤدي إلى اضطراب وتشكيك في هذه القراءات . لأن القراءات متواترها وشاذّها وإن كانت فيها ظواهر لهجية فهي محكومة بالرواية والنقل عن رسول الله (ﷺ) . وليس لأحد أن يقرأ بلهجته كما يشاء ولو كان الأمر كذلك لوجدنا في القراءات العيوب الخاصة في لهجات العرب والتي كان يتجنبها الفصحاء كالكشكشة في ربيعة ومضر ، والعنعنة في

---

(١) وانظر مقال المرحوم الشيخ عبد الجواد رمضان وعنوانه : القرآن واللغة مجلة الأزهر ، المجلد ٢٢ ص ٦٠٠ .

(٢) تأليف الدكتور احمد مختار ، ود/عبد العال سالم مكرم نشر جامعة الكويت .

لهجة قيس وتميم ، والفحفحة في لهجة هذيل[1] . . . . الخ .

حقاً : إن قراءة ابن مسعود « حَتّى حين » في سورة يوسف/٣٥ ﴿ عتّى حين ﴾ وهي فحفحة هذلية ، لأنه جعل الحاء عيناً ؟ .

أقول : هذه كلمة واحدة فقط جاءت في هذه الآية في هذه السورة وعلى الرغم من تكرار ﴿حتى﴾ في القرآن الكريم[2] فإنه لم تقرأ ﴿حتى﴾ : ﴿عَتّى﴾ إلا في هذه الآية وحدها.

وهذا يدل دلالة واضحة على أن ابن مسعود لو قرأ بلغته الهذلية بدون سند عن الرسول عليه السلام لقرأ : (حتّى عتّى) في كل القرآن الكريم ، وهذا ما لم يرد في القراءات مما يدلّ على أن القراءة مشروطة بالرّواية والسماع .

ومن يدري فلعل ابن مسعود غلب عليه لسانه الهذليّ ، فسبق بها لسانه فقرأها ﴿ عتّى ﴾ بالعين بدون أن يتنبه إلى ذلك ومن ثم ـ كما يقول المؤرخون ـ نبّهه عمر بن الخطاب إلى ذلك مبيّناً أن القرآن نزل بلغة قريش لا بلهجة هذيل[3] .

هذا وقضية القراءات القرآنية وأراء القدامى والمحدثين في مجالها قضية كبيرة وخطيرة معاً ، ولا اريد أن أتعرض لهذه القضية في هذا البحث ، لأن مساحته لا تكفي لاستيعابها ، وإنما الذي يعنيني هنا فقط أن أركّز على أن اللغة القُرَشِيّة لم تكن هي اللغة الوحيدة التي نزل القرآن الكريم بها ، وإنما هناك لهجات بجانبها قرأ بها رسول الله (ﷺ)، وهي قراءات لا نقول: إنها مشكوك فيها كما ادعى الدكتور طه حسين في كتابه « في الأدب الجاهلي » حينما قال : « القراءات السّبع ليست عن الوحي في قليل ولا كثير وليس منكرها كافراً ولا فاسقاً ، ولا مغتمزاً في دينه ، وإنما هي قراءات مصدرها اللّهجات

---

(١) الكشكشة : يجعلون بعد كاف الخطاب في المؤنث شيئاً مثل : رايتكشن ، والعنعنة يجعلون الهمزة المبدوء بها عيناً، والفحفحة يجعلون الحاء عيناً ، وانظر عيوب اللهجات أو اللغات في المزهر ١/٢٢٣ .

(٢) كرّرت «حتى» ٧٩ مرة في القرآن الكريم.انظر:معجم الأدوات والضمائر في القرآن الكريم.

(٣) وانظر أثر القراءات القرآنية في الدراسات النحوية ص ٢٦ .

واختلافها ، للناس أن يتجادلوا فيها وان ينكروا بعضها ، وقد حاولوا فيها بالفعل وتماروا ، وخطأ فيها بعضهم بعضاً ، ولم نعلمْ أن أحداً من المسلمين كفّر أحداً لشيء من هذا »[1] .

وقد أيده في ذلك أستاذنا المرحوم الدكتور أنيس حينما قال : « فالمسلم أيًا كانت لهجته ، وأيّاً كانت بيئته ، وأيّاً كانت تلك الصّفات الكلامية التي نشأ عليها وتعوّدها، ولم يقدر عليها يستطيع أن يقرأ القرآن بالقَدْر الذي تعودته عضلات صوته في نطقه بلهجته أو لغته ، ويجب ألاّ ننكر عليه ، أو أن نهزأ من قراءته ، فقد حاول ، وبذل الجهد ، فله أجر اجتهاده »[2] وكأن أستاذنا رحمه الله سار في نفس الدّرب الذي سار عليه الدكتور طه حسين .

مناقشة هذين الرأيين :

إننا لو سلمنا بهذين الرأيين لتعددت القراءات من قبيلة الى قبيلة ، بل من فرد إلى فرد فقد ينطق الفرد متأثّراً بقبيلة في مخارج الحروف ، وقد يكون لهذا الفرد عيوب خاصّة في نطقه . كاللثغة التي تعرض للسّين تكون ثاء كقولهم : لأبي يكسوم : أبي يكثوم ، وكما يقولون : بثرة إذا أرادوا : « بسرة » ، وبثم الله ، إذا أرادوا بسم الله ، وكاللثغة التي تقع في الرّاء ، فإن عددها يضعف على عدد لثغة اللام : فمنهم من إذا أراد أن يقول عمرو ، قال : عمي ، فيجعل الرّاء ياء ، ومنهم من اذا أراد أن يقول : عمرو ، قال عمذ ، فيجعل الراء ذالاً »[3] .

أليس معنى ذلك أن هذه اللثغة المعيبة قد تكون على رأي الدكتور أنيس قراءات ، فضلاً عن أنه ـ كما قدمت ـ لكل قبيلة عيوب خاصة تتنافى مع الفصاحة ، فتصبح هذه العيوب قراءات ، وبذلك تضرب الفوضى أطنابها في قراءات القرآن الكريم مما يؤدي إلى اختلاط الأمر بين القراءة الصحيحة ،

---

(١) في الأدب الجاهلي/ ٩٥ .
(٢) في اللهجات العربية ص ٣٧ ـ ٣٨ .
(٣) البيان والتبيين للجاحظ بتصرف ص ٣٤ ، ٣٥ . تحقيق الأستاذ هارون .

وغيرها من القراءات الأخرى التي قد تشتمل على العيوب الكاملة لكل قبيلة أو العيوب الخاصة في بعض الأفراد[١] .

لهذا الذي قدّمت أؤكد أن هذه القراءات المرتبطة باللهجات هي قراءات ليست مشكوكاً فيها كما يقول الدكتور طه حسين وليس للقبيلة أو لأفرادها أن يقرأوا القرآن وفق اللهجة الخاصة بهم كما يقول الدكتور أنيس ، وإنما هي قراءات موثّقة بالسّند ، مؤيدة بالرّواية ، مدعّمة بالنقل ، ورحم الله الإمام ابن الجَزَريّ حينما وضع مقاييس القراءة القرآنية في عبارته المشهورة ، وبهذه المقاييس ، وضع الأمور في نصابها ، وقطع الطريق أمام الذين يريدون أن يشكّوا في هذه القراءات ، وهذه المقاييس هي : « كل قراءة وافقت العربية ولو بوجهٍ ، ووافقت أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالاً ، وصح سندها فهي القراءة الصّحيحة التي لا يجوز ردّها ، ولا يَحِلّ إنكارها بل هي من الأحرف السّبعة ، التي نزل بها القرآن ، ووجب على النّاس قبولها سواءً كانت عن الأئمة السبعة أم عن العشرة أم عن غيرهم من الأئمة المقبولين » .

ثم قال : « ومتى اختل ركن من هذه الأركان الثلاثة أطلق عليها ضعيفة أو شاذة أو باطلة سواء كانت عن السبعة أم عن غيرهم من الأئمة المقبولين »[٢].

أمثلة من القراءات التي جاءت وَفْق اللهجات :

ـ قراءات وردت بلغة هذيل :

(١) ﴿ ثلاثُ عَوْرات لَكُم ﴾[٣]:

قال السّيوطي في الهمع في موضع إتباع العين لحركة الفاء : « فإن كان حرف العلّة غير مجانس للحركة نحو : جوزة ، وبيضة ، فجمهور العرب على التسكين ، ولغة هذيل الإتباع : قرأ بعضهم : ﴿ ثلاث عَوَرات لَكُمْ ﴾ بالتحريك[٤] .

(١) انظر أثر القراءات القرآنية في الدراسات النحوية ٢٨ .
(٢) النشر ١/٩ .
(٣) النور/٥٨ .
(٤) همع الهوامع ١/٧٣ .

(٢) ﴿ فلإمّه الثُّلُثُ ﴾[١]

قـال أبو حيّـان : « وذكر سيبـويه أن كسـر الهمزة من « أم » لغـة ، وذكر الكسائي والفرّاء أنها لغة هوازن وهذيل »[٢] .

(٣) ﴿ يا بشراي هذا غلام ﴾[٣] .

قال أبو حيّان : «وقرأ أبو الطّفيل، والحسن بن أبي إسحاق ، والجحدريّ ﴿ أَبُشْرَيّ ﴾ بقلب الألف ياء ، وإدغـامها في يـاء الإضافـة ، وهي لغة هذيل »[٤] .

(٤)﴿ فظلوا فيه يَعْرُجُون ﴾[٥] .

قال أبو حيّان : قرأ الأعمش وأبو حيوة : ﴿ يَعْرِجون ﴾ « بكسر الراء وهي لغة هذيل »[٦] .

(٥) ﴿ فمن تَبع هُداي فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون ﴾[٧] :

قـال أبو حيّـان : وقرأ عـاصم الجحدريّ ، وعبـد الله بن أبي إسحاق ، وعيسى بـن عمـر : ﴿ هُـديّ ﴾ بقلب الألف يـاء ، وإدغـامهـا في يـاء المتكلم إذا لم يمكن كسر ما قبل الياء ، لأنه حرف لا يقبـل الحركـة ، وهي لغة هذيل[٨] .

(٦) ﴿ يَوْمَ يأْتِي ﴾[٩] .

قال الزمخشري في الكشاف: ﴿ يوم يأت ﴾ بغير ياء ، ونحو قولهم . لا

---

(١) النساء/١١ ، وهي قراءة: حمزة ـ الكسائي ـ الأعمش. انظر الحجة لأبي زرعـة/١٩٢، ومجمع البيان للطبرسي ١٣/٢ ، والحجة لابن خالويه/١٢٠ ، وغيث النفع/١٨٨ .

(٢) انظر البحر المحيط ١٨٤/٣ .

(٣) يوسف/١٩ ، وهي قراءة أبي عمرو ونافع، وابن كثير، وابن عامر، وانظر: إتحاف فضلاء البشر/٢٦٣ ، ومعاني القرآن للفراء ٣٩/٢ .

(٤) وانظر البحر المحيط ٢٩٠/٥ .

(٥) الحجر/١٤ ، وهي قراءة المطوعي ، والأعمش، وأبي حيوة.

(٦) البحر/٥/٤٤٨ .

(٧) البقرة ٣٨ ، وهي قراءة عاصم الجحدري، وابن أبي إسحاق.

(٨) البحر ١٦٩/١ ، والمحتسب ٧٦/١ .

(٩) الأنعام/١٥٨ وهي قراءة أبي عمرو ـ وابن سيرين ، وأبي العالية .

أدر ، حكاه الخليل وسيبويه . وحذف الياء والاجتزاء عنها بالكسرة كثير في لغة هذيل .[1]

قراءات وردت بلغة تميم :

من هذه القراءات :

١ ـ ﴿الحمدِلله﴾[2] بكسر الدال بدلاً من ضمها بشهادة النّحوي المصريّ النحاس المتوفي سنة ٣٣٨ كانت صيغة ﴿الحمدِلله﴾ على هذا النحو خاصة بلهجة بني تميم»[3].

٢ ـ في الضمير (أنا) .

قال في الهمع : « وفي الألف لغات : إثباتها وصلاً ووقفاً وهي لغة تميم وبها قرأ نافع »[4] .

٣ ـ ﴿ ثم جَعَل مِنْ بعدِ ضَعْفٍ قوة ﴾[5] أهل تميم يفتحون الضّاد ، وبقراءتهم قرأ عاصم وقد تحدث عن هذه القراءة الفرّاء، فقال : الضم لغة قريش ، والفتح لغة تميم[6] .

٤ ـ ﴿ رضوان ﴾[7] لغة تميم بالضم ، ولغة غيرهم بالكسر[8] .

قراءات وردت بلغة قيس وأسد :

قال السيوطي في الهمع: «وقد تسكن هاء هو وهي بعد الواو والفاء، وثم اللام، وقرىء بذلك في السبع: ﴿وهو مَعْكم﴾[9]، ﴿فَهْو وليُّهم﴾[10]ثم قال

---

(١) البحر ٤/ ٢٥٩ ، وإعراب القرآن للنحاس ١/ ٥٦٩ .

(٢) الفاتحة/١ ، وهي قراءة : الحسن البصري ، وزيد بن عليّ .

(٣) اعراب القرآن للنحاس ١/ ١٢٠ ، والتبيان للطوسي ١/ ٣١ ، واعراب القرآن للعكبري ١/ ٣ ، وانظر العربية ليوهان فك/٣٢ .

(٤) همع الهوامع ١/ ٢٠٧ .

(٥) الروم/٥٤ .

(٦) البحر المحيط ٤/ ١٧ ، ١٨ وتفسير القرطبي ١٤/ ٤٦ .

(٧) آل عمران/١٥ وغيرها .

(٨) انظر التبيان ٢/ ٤١٣ .

(٩) الحديد/٤ .

(١٠) النحل/٦٣ .

السّيوطي بعد ذلك: «وتسكين الواو والفاء لغة قيس وأسد»[1].

قراءات وردت بلغة بني الحارث وختعم وزبيد وهمـذان وبعض بني العنبر ، وعذرة ، ومراد :

وهي القراءات المتمثلة في جعل المثنى بـالألف دائماً ، ومنـه قراءة : ﴿ إن هذان لساحران ﴾[2] قال الجاربردي : «.إجماع النحويين على أن هذه لغة حـارثية ، وذلـك أن بلحارث بن كعب ، وختعم وزبيـد ، وقبـائـل من اليمن يجعلون ألف الاثنين في الرفع والنصب والخفض على لفظ واحد »[3] .

ـ وإذا نظرنا إلى القراءات التي جاءت بالفتح أو بـالإمالـة في لهجات العـرب نجدها كثيرة متعدّدة . فالسّيوطي في « الإتقان » يقول : « الفتح والإمالة لغتان مشهورتان على ألسنة الفصحاء من العرب الذين نزل القرآن بلغتهم ، فالفتح لغة أهل الحجاز ، والإمالة لغة عامة أهل نجد من تميم وأسد وقيس »[4] .

على أن الدكتور عبد الفتاح شلبي يرى أن ظاهرة الإمالة منتشرة في كثير من لهجات القبائل العربية حجازيّة أو غير حجازية يقول : « إن الإمالة لم تكن مقصورة على تلك القبائل التي أشار إليها الأقدمون في كتبهم ، وإنما كـانت ظاهرة أكثر شيوعاً مما ذكروه فقد كانت تنتظم معـظم القبائـل العربيّـة وإن تفاوتت قلّة وكثرة فهي إذاً صفة كثيرة الشيوع جداً عن العرب في نطقهم »[5]

من كلّ ما تقدم نستطيع أن نقول : إن القرآن الكريم صورة صادقة للغة الأدبية النموذجية القرشية إلى جانب ظواهر لغوية أخرى جاءت وفق اللهجات العربية السائدة لتتم المعجزة ، وليكون القرآن الكريم كتاب العربيّة الخالد ، لا فرق بين لهجة ولهجة ولا بين لغة ولا لغة ، ما دامت هذه اللهجات تصب في مورد واحد وهو اللغة العربية الأم .

---

(١) الهمع ١/٦١ .

(٢) طه/٦٣ ، وانظر شرح الجاربردي على الشافية ١/٢٧٧ .

(٣) انظر حاشية ابن جماعة على شرح الشافية ١/٢٧٧ .

(٤) انظر ١/٩١ .

(٥) الإمالة في القراءات واللهجات العربية/٩٥ .

وقبل أن نترك هذا الفصل إلى فصل آخر أرى أن هناك قضية أخرى تلح عليّ إلحاحاً شـديداً لأعـطيها نصيبهـا من البحث ، وحقها من الـدراسة وهي قضية الكلمات الأعجمية في القرآن الكريم .

لهجة قريش وقضية الكلمات الأعجمية في القرآن الكريم

لم تكن اللغة العربية حينما نزل القرآن الكريم لغة ضعيفة يعتريها الوهن ، ويدب في أوصالها العجز والخور بل كانت لغة حية متكاملة في ألفاظها، وأساليبها، وتراكيبها ومعانيها، لغة تتدفق بالحياة، تسحرك بجمالها، وتأخذ بمجامع قلبك بحسن بيانها ، وقد لفتت هذه المكانة التي وصلت إليها العربيّة أنظار كثير من المستشرقين المتعصّبين منهم وغير المتعصبين .

فهذا (أرنست رينان) يقول في كتابه : « تاريخ اللغات السامية » ما نصه : « من أغرب المدهشات أن تنبت تلك اللغة القوية وتصل إلى درجة الكمال وسط الصحراء عند أمة من الرحل ، تلك اللغة التي فاقت أخواتها بكثرة مفرداتها ، ودقّة معانيها ، وحسن نظام مبانيها . ومن يوم علمت ظهرت لنا في حلل من الكمال إلى درجة أنها لم تتغير أي تغير يذكر حتى إنها لم يعرف لها في كل أطوار حياتها طفولة ولا شيخوخة[1] » وقد نسج الكاتب القصصي الروائي (جون فرن) قصّة خيالية أشاد فيها بلغة العرب ، لأنه بنى قصته الخيالية «على سُيّاح يخترفون طبقات الكرة الارضية حتى يصلوا أو يدنوا من وسطها ، ولما أرادوا العودة إلى ظاهر الأرض بدا لهم أن يتركوا هنالك أثراً على رحلتهم فنقشوا على الصخر كتابة باللغة العربية .

ولما سئل (جون فرن) عن وجه اختياره للغة العربية ، قال : إنها لغة

---

(١) نقلاً عن « دراسات في العربية وتاريخها» للشيخ محمد الخضر حسين/١٩ .

المستقبـل . ولا شك أنـه يموت غيـرهـا ، وتبقى حيـة حتى يـرتـفـع القـرآن نفسه[1] » .

وإذا كانت لهجة قريش التي نزل بها القرآن الكريم على هذا المستوى الذي فتن به العلماء والأدباء فهل يعقل في باب الفكر والمنـطق أن تمدّ هـذه اللغة يدها إلى اللغات الأخرى الأجنبية لتأخذ منها الكلمات الأعجمية ؟

هل يعقل أن هذه اللغة التي تفرعت لهجاتها ، وتعددت صيغها وكثرت ألفاظها، وازدهرت كلماتها أن تتسوّل ـ وهي الغنيـة بما لـديها ـ الكلمـات أو الألفاظ من اللغات الأخرى؟.

هل يعقل أن هذه اللغة التي لا يحيط بها ولا يستوعبها إلاّ نبيٌّ كما يقول الشافعي رضي الله عنه ، لا تجدْ اللّفظة الدالّة أو الكلمة المختارة لما تريد من معان فتتسلّل إلى اللّغات الأخرى لتأخذ ما تريد ؟ .

ذلـك منطق لا يقبله العقـل، وتفكير استبـدّ به المرض والهوى، وقبـل أن أعرض رأيي في هذه القضيّة ، أبسط آراء العلماء فيها ، لنكون على بيّنةٍ من أمرها .

أمّا الكلمات الأعجميّة التي ثار حولها الجدل ، واحتدم النقـاش . فهذه بعض منها :

أ ـ ما ورد بلسان الحبشة :

١ ـ قـال الطّبـري : حدثنـا عتبة عن أبي إسحـاق عن أبي الأحـوص عن أبي موسى : ﴿ يُؤْتِكم كِفْلين من رحمته ﴾[2] ، قال : الكفلان : ضعفان من الأجر بلسان الحبشة .

٢ ـ ﴿ إن نَـاشِئَةَ اللَّـيـل ﴾[3] : عن أبي اسحاق عن سعيـد بن جبير عن ابن عباس : إنّ ناشئة الّليل ، قال : بلسان الحبشة : إذا قام الرجل من الليل قالوا : نشأ .

---

(١) المرجع السابق/١٤ .

(٢) الحديد/٢٨ .

(٣) المزمل/٦ .

٣ - ﴿ ياجبالُ أوِّبي معه ﴾[1] : سبّحي بلسان الحبشة .
٤ - ﴿ فَرَّت من قَسْوَرة ﴾[2] هو بالعربية : أسد ، وبالفارسية : شار ، وبالحبشية : قسورة .

وقال السّيوطي في « الإتقان » ﴿ لَأَوَّاهٌ ﴾[3] : مُوقِنٌ بلسان الحبشة .

و ﴿ الجِبْت ﴾[4] : اسم الشيطان بلسان الحبشة وقال الزركشي في « البرهان في علوم القرآن » . ﴿ كمشكاة ﴾[5] . الكُوَّة بلسان الحبشة .

ب - ما ورد بلسان الفرس :

﴿ أباريق ﴾[6] - ﴿ التّنور ﴾[7] - ﴿ دينار ﴾[8] - ﴿ سُرادقها ﴾[9] - ﴿ استبرق ﴾[10] - ﴿ زنجبيلاً ﴾[11] .

ما ورد باللسان الرومي :

﴿ الرقيم ﴾[12] - ﴿ لوح ﴾[13] - ﴿ القسطاس ﴾[14] - العدْل ﴿ طَفِقا ﴾[15] - قَصَدا .

جـ - ما ورد باللغة العبريّة :

﴿ بعير ﴾[16] - الحِمار ، ﴿ درست ﴾[17] - قرأت ، ﴿ هُدْنا ﴾[18] - تُبْنا ، ﴿ راعنا ﴾[19] - كلمة : سَبّ .

---

(١) سبأ/١٠ .
(٢) المدثر/٥١ .
(٣) التوبة/١١٤ .
(٤) النساء/٥١ .
(٥) النور/٣٥ .
(٦) الواقعة/١٨ .
(٧) هود/٤٠ .
(٨) آل عمران/٧٥ .
(٩) الكهف/٢٩ .
(١٠) الإنسان/٢١ .
(١١) الإنسان/١٧ .
(١٢) الكهف/٩ .
(١٣) البروج/٢٢ .
(١٤) الإسراء/٣٥ .
(١٥) الأعراف/٢٢ .
(١٦) يوسف/٦٥ .
(١٧) الأنعام/١٠٥ .
(١٨) الأعراف/١٥٦ .
(١٩) البقرة/١٠٤ .

﴿ الرّحمن ﴾(١) : ذهب المبرد وثعلب : إلى أنه عبراني ، وأصله الخاء المعجمة .

د ـ ما ورد باللسان القبطي :

﴿ الملة الآخرة ﴾(٢) الأولى ـ ﴿ بطائنها ﴾(٣) : ظواهرها ـ ﴿ وراءهم ملك ﴾(٤) أمامهم ملك ، ﴿ اليمّ ﴾(٥) : البحر .

هـ ـ ما ورد بالسّريانيّة :

﴿ الطور ﴾(٦) : جبل .

و ـ ما ورد باليونانية :

﴿ سريًا ﴾(٧) : النهرَ الصغير .

ز ـ ما ورد بالزنجية :

﴿ حصب جهنّم ﴾(٨) : حطب جهنم : ﴿ حطة ﴾(٩) : صواباً .

ح ـ ما ورد بالنبطية :

﴿ رَهْوا ﴾(١٠) : سهلاً ـ ﴿ سيّدها ﴾(١١) زوجها .

هذا وقد أورد السيوطي هذه الكلمات الأعجمية بالتصنيف وسماها « المهذب فيما وقع في القرآن من المُعَرّب » .

وقد نظم تاج الدين السبكي منها سبعة وعشرين لفظاً في أبيات جاء فيها :

السلسبيل وطه كُوّرت بيعٌ ... روم وطوبى وسجّيل وكافورُ
والزنجبيل ومُشْكاة سرادق مع : ... استبرق صلوات سندس طورُ

---

(١) الرحمن/١ .
(٢) صٓ/٧ .
(٣) الرحمن/٥٤ .
(٤) الكهف/٧٩ .
(٥) القصص/٧ .
(٦) الطور/١ .
(٧) مريم/٢٤ .
(٨) الأنبياء/٩٨ .
(٩) البقرة/٥٨ .
(١٠) الدخان/٢٤ .
(١١) يوسف/٢٥ .

كـذا قـراطيس ربّـانيهم وغسّـا   ق ثم دينـار القسـطاس مشهـور
لـه مقاليـد فـردوس يعـدّ كـذا   فيمـا حكى ابن دريـد منـه تنّـور

وقد ذيل الحافظ ابن حَجَر على هـذه الأبيات ، وذيـل السيوطي عليهـا بالباقي وهي بضع وستون ، فتمّت أكثر من مائة لفظة[1] .

آراء العلماء حول هذه الكلمات :

يسجّل الطبريّ في تفسيره بعض الأخبار: «أن في القرآن من كل لسان»[2] إلى غير ذلك من الأخبار التي أوردها في هذا المجال.

ويعقب الطبري على هذه الأخبار : أن هـذه الكلمات التي رويت ولم يكن العرب يعرفونها قبل نزول القرآن الكريم ليست نـصّاً على أنها غير عربية لأنه كما يقول : « ولم يستنكر أن يكون من الكلام ما تَتَّفـق فيه ألفـاظ جميع أجنـاس الأمم المختلفة الألسن بمعنى واحـد فكيف بجنسين منها : كمـا قد وجدنا اتفاق كثير منه فيما قد علمناه من الألسن المختلفـة ، وذلك كـالدّرهم والدينار ، والدواة والقلم والقرطاس وغير ذلك مما يتعب إحصـاؤه ، ويمـلّ تعداده كرهنا إطالة الكتاب بـذكره ممـا اتفقت فيه الفـارسية والعـربيّة بـاللفظ والمعنى، ولعلّ ذلك كذلك في سـائر الألسن التي يجهـل منطقهـا ولا يعرف كلامها.

فلو أن قائلاً قال فيما ذكرنا من الأشيـاء التي عددنـا وأخبرنـا اتفاقـه في اللفظ والمعنى بالفارسية والعربية وما أشبه ذلك مما سكتنا عن ذكره : ذلك كله فارسيّ لا عربيّ ، أو ذلك كله عربيّ لا فارسيّ ، أو قال بعضٌ عربيّ ، وبعضٌ فـارسيّ، أو قال كـان مخرج أصله عن العـرب فوقـع إلى العجم، فنطقـوا به، أو قال : كان مخرج أصله من عند الفرس فوقع إلى العرب فأعربته كان مستجهلاً ، لأن العرب ليست بأولى أن تكون كان مخرج أصل ذلك منها إلى

(١) انظر هذه الكلمات الأعجمية في الطبري ١/ ص ٦ ، ٨ والإتقان للسيوطي ١٣٨/١ ، والبرهان في علوم القرآن للزركشي/١ ٢٧٧ ـ ٢٨٨ ، ومفتاح السعادة ٤١٢/٢ ، ٤١٣ ، ٤١٤ .

(٢) تفسير الطبري ٧/١ .

العجم ، ولا العجم بأحق أن تكون كان مخرج ذلك منها إلى العرب ، إذ كان استعمال ذلك بلفظ واحد ومعنى واحد موجوداً في الجنسين ، وإن كان ذلك موجوداً على ما وصفنا في الجنسين ، فليس أحد الجنسين أولى بأن يكون أصل ذلك كان من عنده من الجنس الآخر »[1] ويبدو أن الطّبري كان منهجياً في رأيه بأن هذه الكلمات ليست مستوردة ، وإنما هي أصيلة في العربية وإن وجدت في غيرها فهو من باب اتفاق الألسن المختلفة التي اتفقت ألفاظها ومعانيها مع العربية .

وليس من شك في أن العربيّة في عصورها القديمة احتكت بغيرها من لغات الأمم التي اختلطت بها فتأثرت وأثرت وتركت كثيراً من كلماتها في لغات هذه الأمم المجاورة ، ولما طال الأمد رجعت هذه الكلمات إلى موطنها الأصليّ قبيل نزول القرآن الكريم ، لأنه لا يعقل أن يخاطب القرآن الكريم قوماً بكلمات يجهلون معناها .

ولا أذهب بعيداً إذا قلت: إن كثيراً من الكلمات اشتركت أصولها لتؤدي معنى واحداً ، ولفظاً متقارباً ، وقد وفى هذا الموضوع حقه الأستاذ عبد العزيز ابن عبد الله في بحثه القيم المنشور في مجلة اللسان العربي تحت عنوان : الوحدة الأصلية بين اللغات مظهر لوحدة إنسانية عريقة »[2] وأضاف إلى هذا الموقف جانباً آخر وهو ما أشار اليه « أحد كبار الأختصاصيين في اللهجات وهو كوني « A.Cuny » من وجود تشابه عميق بين اللغات الهندية الأوروبية أي الأوروبية من جهة واللغات الحاميّة كالمصرية القديمة والساميّة كالعربية والعبرية من جهة أخرى ، فقد لاحظ أن وحدة استعمال صيغة المثنى مثلاً في هذه اللغات دليل قاطع على القرابة الأصلية بين هذه المجموعات اللغوية ، ثم ذهب أبعد من ذلك فأبرز طابع التّجانس والتشابه بين التطور الذي حققته اللغة اليونانية انطلاقاً من اللغة الهندية الأوروبية ، وبين تطور اللغة السامية ابتداء من الثنائية الحاميّة والساميّة » .

---

(١) تفسير الطبري ٧/١ .

(٢) مجلة اللسان العربي المجلد ٧ الجزء الأول من ص ٥ ـ ١٣ .

ويؤكد كوني « أصالة التراث الموحّد العريق في عهد ما قبل التاريخ بين العربية الفصحى ولغة شعب اركاديا » « Arcadie » اليوناني وهو شعب من الرّعاة الذين جمعتهم وعرب الجاهلية روح البداوة الخلّاقة .

ثم ختم هذا الباحث سلسلة دراساته الدقيقة مؤكداً « أن مجال التشابه والتوافق بين اللّهجات الهندية الأوروبية ، والسامية والحامية حجة حتمية على وجود وحدة لغوية أصلية » .

وبعد هذ الاستشهاد بأقوال الباحث اللغوي يختم الأستاذ عبد العزيز بن عبد الله بحثه بعد ذكر نماذج مختلفة من الكلمات المشتركة بين لغات الأمم بقوله : « إن بين اللغات وحدة أصلية هي مظهر للوحدة الإنسانية الكبرى » .[1]

ولعل الطّبري كان أسبق من هذا الدارس في هذه الفكرة حينما بَيَّنَ هذه اللغة المشتركة بين الشعوب ، والتحكُّم بأن أصلها عربي أو فارسي أو روماني لا يقوم على دليل ، ولا تنهض به حجة .

رأي الإمام الجُوَينيّ :

ولا ننسى أن الإمام الجُوينيّ له رأي في هذه القضية ، ولا يستنكر وقوع « المعرَّب » في القرآن الكريم ، بل يرى أن له فائدة في مجال البلاغة والبيان قد لا يشعر بها كثير من الناس ، لأنها تخفى عليهم بما تشتمل عليه من دقة البيان ، وسرّالإعجاز . ويتناول الجويني كلمة « إستبرق » من بين هذه الكلمات ألمعرَّبة فيقول : « فإن قيل : « إستبرق » ليس بعربيّ ، وغير العربي من الألفاظ دون العربي في الفصاحة والبلاغة فنقول : لو اجتمع فصحاء العالم وأرادوا أن يتركوا هذه اللفظة ، ويأتوا بلفظ يقوم مقامها في الفصاحة لعجزوا عن ذلك[2] » .

---

(١) مجلة اللسان العربي مجلد ٧ الجزء الأول ص ٥ ـ ١٣ .

(٢) الإتقان ١٣٦/١ ، ١٣٧ .

رأي الإمام الشّافعيّ :

أنكر الإمام الشّافعي كلَّ الإنكار أن تكون هذه الكلمات أعجميَّة لأن القرآن الكريم.نزل بلسان عربيّ مبين ، فهو من ألفه إلى يائه عربي فصيح ، لم يَسْتَعِر كلمة ، ولم يمدّ يده إلى لفظة ، لأنه ليس في حاجة إلى هذه الاستعارة كما أنه ليس في حاجة إلى أن يزيد ثروته اللفظية ببضع كلمات بين آلاف الكلمات .

كان الشافعي صريحاً كل الصراحة في هذا الاتّجاه ، مؤمناً كلَّ الإيمان بهذا الرأي .

وقد تولى في كتابه « الرسالة » الدفاع عن هذا الرأي بأسلوب حارّ ، ولكنه أسلوب علمي منهجي يقوم على التساؤل والإجابة . قال : « فإن قال منهم قائل : إن في القرآن عربيّاً وأعجميّاً ، فردّ الإمام هذا الادّعاء بقوله : « والقرآن يدلُّ على أن ليس من كتاب الله شيء إلا بلسان العرب ، ولسان العرب أوسع الألسنة مذهباً ، وأكثرها ألفاظاً ، ولا نعلمه يحيط بجميع علمه إنسان غير نبيّ » .

« فإن قال قائل : ما الحُجَّة في أن كتاب الله مُحَصَّنٌ بلسان العرب لا يخلطه فيه غيره ؟

فالحجة في كتاب الله ، قال الله تعالى : ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ﴾[1] .

فإن قال قائل ، فإن الرسل قبل محمد كانوا يرسلون إلى قومهم خاصة ، وإن محمدا بعث إلى الناس كافة ، فقد يحتمل أن يكون بعث بلسان قومه خاصة ، ويكون على الناس كافة أن يتعلموا لسانه ، وما أطاقوا منه ، ويحتمل أن يكون بعث بألسنتهم فهل من دليل على أنه بعث بلسان قومه خاصة دون ألسنة العجم ؟

ويردُّ الشافعيّ على هذا الاعتراض بقوله : « فإن كانت الألسنة مختلفة بما لا يفهمه بعضهم عن بعض ، فلا بد أن يكون بعضهم تبعاً لبعض ، وأن

---

(١) إبراهيم/٤ .

يكون الفضل في اللسان المتبع على التابع . وأولى الناس بالفضل في اللسان مَنْ لسانه لسان نبيّ ولا يجوز ـ والله أعلم ـ أن يكون أهل لسانه أتباعاً لأهل لسان غير لسانه في حرف واحد ، بل كلُّ لسانٍ تبعٌ للسانه ، وكل أهل دين قبله ، عليهم اتّباع دينه » .

بهذا المنطق القوي ردَّ الشافعي على هذا الاعتراض « ثم ذكر الشافعيّ آيات عدة تنصُّ صراحة على أن القرآن الكريم نزل بلسان مبين ، قرآناً عربيّاً غير ذي عِوَج .

ويختم الشافعي دفاعه عن كتاب الله تعالى بهذه النصيحة الغالية فيقول : « فكان تنبيه العامّة على أنَّ القرآن نزل بلسان العرب خاصَّة نصيحة للمسلمين ، والنصيحة لهم فرض لا ينبغي تركه ، وإدراك نافلة خير لا يدعها إلا من سفه نفسه ، وترك موضع نفسه ، وترك موضع حظه . . . . . ونصيحة المسلمين من طاعة الله ، وطاعة الله جامعة للخير »(١) .

رأيي :

وفي رأيي أن القرآن الكريم وهو المعجزة الخالدة التي تتحدى البلغاء ، والفصحاء في كل العصور والدهور لا يمكن أن تضمَّ كلماته الكريمة كلمات دخيلة .

فما يدرينا أن هذه الكلمات عربيَّة الأصل ، ولا أدل على ذلك من كلمة أبي عمرو بن العلاء : « ما انتهى إليكم مما قاله العرب إلا اقلَّه ، ولو جاءكم لجاءكم علم وافر وشعر كثير »(٢) .

على أن العقل لا يسلم بأعجمية هذه الكلمات من الناحية المنطقية فهذه الكلمات كما يقول السّيوطي : « أكثر من مائة لفظة ، وهو عدد قليل بالنسبة إلى كلمات القر ان الكريم التي تبلغ في رواية الفضيل بن شاذان عن عطاء بن يسار : سبع وسبعون ألف كلمة ، وأربعمائة وسبع وثلاثون كلمة »(٣) .

---

(١) انظر نصوص الشافعي في الرسالة ص ٥٠ .

(٢) الاقتراح للسيوطي /٢٧ .

(٣) البرهان في علوم القرآن ١/٢٤٩ .

فما السِّرُّ إذاً في أن يمُدَّ القرآن الكريم يده لأخذ هذه الكلمات المائة من لغات العجم ، هل اللغة العربية فقيرة إلى هـذا الحد ، فتـطلب المعونـة بهذه الكلمات ، كيف ذلك وهي اللغة التي لا تستطيع أي لغة أن تجاريها في مجال الاتساع ، إنَّها اللغة الوحيدة من لغات العالم التي تحفظ للمعنى الواحد بالمئين من الألفاظ .

يقول السيوطي في المزهر : « إن العجم لا تعرف للأسد أسماء ، غير اسم واحد ، فأما نحن فنخرج له خمسين ومائة اسم وقال : حدثني أحمد بن محمد بن بندار قال : سمعت أبا عبد الله بن خالويه الهمذاني يقول : جمعت للأسد خمسمائة اسم وللحيَّة مائتين » .

وقبل أن أختم هذا البحث أحب أن أسجل رأيين لرجلين من أعلام الفكر في عالمنا العربي المعاصر: وهما المرحومان الدكتور عبـد الوهـاب عزام ، والشيخ أحمد شاكر .

رأي الدكتور عزام :

يرى أن اللغات السَّامية وجاراتها تبادلت ألفاظاً في عصور متطاولة قبـل الإسلام ، فدخل في الفارسية مثلاً، ألفاظ ساميَّة، فَرُبَّ لفظ فارسيّ يظن أصلاً للفظ عربي هوفي الحقيقة لفظ سامي تسرَّب إلى الفارسية في العصور القديمة، وقد بَعُد بالباحثين عن الصواب ظنهم أن العربية لم تهب اللغات الأخرى من ألفاظها إلاَّ في العصور الإسلامية »[1] .

رأي الشيخ أحمد شاكر :

يرى أن العرب أمة من أقدم الأمم،ولغتهامن أقدم اللغات وجوداً،كانت قبل إبراهيم وإسماعيل،وقبل الكلدانية، والعبرية والسِّريانية وغيرها بلغة الفارسيَّة ، وقد ذهب منها الشيء الكثير بذهاب مدنيَّتهم الأولى قبل التاريخ ، فلعل الألفاظ القرآنية التي يظن أن أصلها ليس من لسان العرب ، ولا يعـرف مصدر اشتقاقها لعلَّها من بعض ما فقد أصله .

---

(١) مقدمة المعرب للجواليقي ص ٤ .

وإلى هنا نختم الحديث في هذه القضية التي نبرِّىء فيها كلام الله تعالى من الدَّخيل العجمي .

ولعلي بعرض هذه القضية أسد الباب أمام اللغويين المحدثين الذين يدعون أن القرآن الكريم سار على منهج التعريب ، حينما أخذ من الفارسية والحبشية وغيرهما .

ونحن نلجأ إلى التعريب لأننا لم نعش في أعماق اللغة لنستخرج الكلمة الدالة ، واللفظة المعبرة ، وذلك لعجزنا عن الإحاطة باللغة من ناحية ، ولإيثار مدٌّ اللغة العربية بكلمات جديدة سيراًعلى مبدأالتطوراللغوي من ناحية أخرى ، إن صح لنا أن نعرِّب ألوف الكلمات الوافدة في عصر تقاربت فيه اللغات ، وتمازجت الأفكار فإنه لا يصح مطلقاً أن نتخذ من القرآن ذريعة نعتمد عليها في شرعية هذا الغزْو الأجنبيّ ، فإنه كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه [1] .

---

(١) انظر هذا البحث باستيعاب في كتاب : « من الدراسات القرآنية » ص ٥١ للدكتور/عبد العال سالم مكرم .

اللهجة القرشية وغريب القرآن الكريم

يتعلَّق بقضية الكلمات الأعجمية في القرآن الكريم قضية أخرى وهي الكلمات الغريبة في القرآن الكريم الذي اتخذ لهجة قريش أسلوبه التعبيريّ في معظم آياته وكلماته كما قدمت سابقاً ـ ولكن ما هو الغريب ؟ وما الدلالة التي يدلُّ عليها ؟

يجيب عن ذلك الزركشي في كتابه : « البرهان » فيقول : « هو معرفة المدلول »[1] ومعرفة المدلول هي معرفة معاني الألفاظ ومعاني الألفاظ لا يستوي في معرفتها جميع العرب لأن استيعاب اللغة بألفاظها ومعانيها فوق قدرة الفرد .

ومن هنا اهتم العلماء بمعرفة غريب القرآن الذي نزل معظمه بلغة قريش . قال الزركشي : وقد صنَّف فيه جماعة منهم أبو عبيدة كتاب « المجاز » وأبو عمر غلام ثعلب « ياقوتة الصراط » .

ومن أشهرها كتاب ابن عزيز ، « والغريبين » للهرويّ . ومن أحسنها كتاب « المفردات » للرّاغب : .. ثم يقول الزركشي : « ومعرفة هذا الفن للمفسر ضروريّ ، وإلاّ فلا يحلُّ له الإقدام على كتاب الله تعالى . قال يحيى بن نضلة المديني : سمعت مالك بن أنس يقول : « لا أوتى برجل يفسر كتاب الله غير عالم بلغة العرب إلاّ جعلته نكالاً »[2]، على أن الرّافعي يعطي الغريب معنى

---

(١) انظر البرهان ١ / ٢٩١ .

(٢) البرهان في علوم القرآن ١ / ٢٩١ ـ ٢٩٢ .

أوضح بما ذكره الزركش حينما يقول : « في القرآن الكريم ألفاظ اصطلح على تسميتها بالغرائب وليس المراد بغرابتها أنها منكرة أو نافرة أو شاذة فإن القرآن مُنَزَّهٌ عن هذا جميعه ، وإنما اللفظة الغريبة ها هنا هي التي تكون حسنة مستغربة في التأويل بحيث لا يتساوى في العِلْم بها أهلها، وسائر الناس»[1].

وتعريف الزّركشي للغريب بأنه معرفة المدلول ، وتعريف الرافعي له بأنه اللفظة الحسنة المستغربة في التأويل يؤدي إلى إشكال خلاصته أنه إذا كان القرآن عربياً نزل على قوم ربّوا في الفصاحة، وارتقوا إلى قمم البلاغة، فكيف تخفى بعض ألفاظه عليهم، فيحتاجون إلى معرفة المدلول كما يقول الزركشي أو إلى معرفة التأويل كما يقول الرّافعي؟

ولعل ابن خلدون أحس بهذه القضيّة في نفسه فأراد أن يجليها واضحة ، ويكشفها صريحة حينما يقول : « القرآن نزل بلغة العرب وعلى أساليب بلاغتهم ، فكلهم كانوا يفهمونه ، ويعلمون معانيه في مفرداته وتراكيبه »[2] .

والواقع أن ما ذكره ابن خلدون يجانبه الصواب ، لأننا كما ذكرنا أن لغة العرب لا يستوعبها إلاّ نَبِيّ ، ولا يمكن للأفراد مهما صفت ذاكرتهم ، وأشرقت مداركهم ، وقويت حافظتهم أن يستوعبوا هذه اللغة بألفاظها ومعانيها ، وهم إزاءها على درجات مختلفة لا يتسنّى فهمها للجميع في مستوى واحد ، وإنما في مستويات مختلفة ، لأن اللغة فيها الغريب ، وفيها السّهل ، وفيها ما كثر جريانه على الألسنة ، وفيها ما قل .

من أجل ذلك يقرِّر ابن قتيبة في كتابه « المسائل » : « أن العرب لا تستوي في المعرفة بجميع ما في القرآن من الغريب والمتشابه بل لبعضها الفضل في ذلك على بعض ، والدليل عليه قوله الله عز وجل : ﴿ وما يعلم تأويله إلاّ الله ، والراسخون في العلم ﴾[3] » .

---

(١) إعجاز القرآن للرافعي/ ٧٤ .
(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٣٦٧ ـ المطبعة الأزهرية ، ص ١٩٣ .
(٣) آل عمران/ ٧ .

ثم قال : « ويدلُّ عليه قول بعضهم : يا رسول الله إنَّك لتأتينا بالكلامِ من كلام العرب ما نعرفه ، ونحن العرب حقاً ، فقال : إن ربي علمني فتعلمت »[1] .

وأوضح رد على ابن خلدون ما ذكره ابن تيمية في مقدمته : « في أصول التفسير » حيث قال : « يجب أن يعلم أن النبي (ﷺ) بيَّن لأصحابه معاني القرآن كما بين لهم ألفاظه ، فقوله تعالى : ﴿ لتبينَّ للناس ما نزِّل إليهم ﴾[2] يتناول هذا وهذا » .

وقد قال أبو عبد الرحمن السُّلمي : « حدثنا الذين كانوا يُقرئوننا القرآن كعثمان بن عفان ، وعبد الله بن مسعود ، وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النَّبيّ (ﷺ) عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل ، قالوا : فتعلَّمنا القرآن ، والعلم والعمل جميعاً » [3] .

---

(١) المسائل نسخة مصورة بمكتبة جامعة القاهرة رقم ٢٢١٩٦٧ .
(٢) النحل/٤٤ .
(٣) مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية ص ٥ .

الصحابة والغريب

كان هناك اتجاهان بصدد غريب القرآن بين الصحابة رضوان الله عليهم .

الاتجاه الأول : يمثله أبو بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما : أما أبو بكر فقد رُوي أنه سئل عن قوله تعالى : ﴿ وكان الله على كل شيء مُقِيتاً ﴾[1] فقال : « أي سماء تظلني وأي أرض تقلني ، إن قلت في كتاب الله ما لا أعلم » ؟[2] .

وأما عمر فقد رُوي عنه أنه قرأ على المنبر : ﴿وفاكِهة وأباً ﴾[3] فقال : هذه الفاكهة قد عرفناها فما الأبُّ ؟ ثم رجع إلى نفسه فقال : لعمرك ، إن هذا هو التكلُّف يا عمر[4] .

فهذا الاتجاه ينكر أن يعطي تفسيرات للكلمات الغريبة ، فقد يراد بها معنى غير المعنى المراد ، وفي هذا من الإثم ما فيه : أما الاتجاه الثاني فهو الاتجاه الذي يحاول أن يضع تفسيرات واضحة لهذه الألفاظ الغريبة ، لأن القرآن عربي ، وكلام العرب يوضح ما غمض من لفظه ، وما صعب من معانيه . وهذا الاتجاه يمثله ابن عباس فقد كان يرى « أن الشعر ديوان العرب ، فإذا خفي علينا الحرْف من القرآن الذي أنزله الله بلغة العرب رجعنا

(١) النساء/ ٨٥ .

(٢) انظر مقدمتان في علوم القرآن/١٨٣ .

(٣) عبس/٣١ .

(٤) مقدمتان في علوم القرآن/١٨٣ .

إلى ديوانها فالتمسنا معرفة ذلك منه »[1] ولا أدل على ذلك مما رواه طلحة بن عمرو عن عطاء قال : سمعت ابن عباس إذا سئل عن عربيَّة القرآن أنشد الشعر ، فقيل له : مازنيم[2] ، فقال :

زنيمٌ تداعاه الرجال زيادةً كما زيد في عَرْض الأديم الأكارعُ[3]

وعن ابن أبي مليكة قال : سُئِلَ ابن عباس عن : ﴿ والليل وما وسق ﴾[4] فقال : ألم تسمع قول الشاعر :

إن لنا قلائصاً حقائقا مُسْتَوْسقات لو يَجِدْن سائقا[5]

ومسائل نافع بن الأزرق التي رواها السيوطي في « الإتقان »[6] مشهورة في تاريخ غريب القرآن الكريم « فبينا عبد الله بن عباس جالس بفناء الكعبة قد اكتنفه الناس يسألونه عن تفسير القرآن فقال : نافع بن الأزرق لنجدة بن عويمر قم بنا إلى هذا الذي يجترىء على تفسير القرآن بما لا علم له به ، فقاما إليه ، فقالا : إنا نريد أن نسألك عن أشياء من كتاب الله تعالى فتفسِّرها لنا ، وتأتينا بمصادقة من كلام العرب ، فإن الله تعالى أنزل القرآن بلسان عربي مبين ، فقال ابن عباس : سلاني عمَّا بدا لكما ، فقال نافع : أخبرني عن قول الله تعالى : ﴿ عن اليمين وعن الشِّمال عِزين ﴾[7] . . . الخ . وأخذ ابن عباس يجيب عن أسئلتهما في باب الغريب بمايحفظ من الشعر العربي الجاهلي المأثور .

ومن غير شك أن هذه المسائل المتعددة التي ساقها السُّيوطيّ بتمامها في « الإتقان » لتدلّ دلالة واضحة على أنها أول دراسة لغوية تمت على يد ابن

---

(١) « تاريخ » آداب العرب للرافعي ١/٣٣٥ ط ثانية .
(٢) من قوله تعالى : ﴿ عُتُلٍّ بعد ذلك زنيم ﴾ (القلم)/١٣ .
(٣) مقدمتان في علوم القرآن/١٩٨ .
(٤) الانشقاق/١٧ .
(٥) انظر مقدمتان في علوم القرآن/ ١٩٨ ، وانظر القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية ٢١٥ ـ ٢١٦ . للدكتور/عبد العال سالم مكرم .
(٦) ١/١٢٠ .
(٧) المعارج/٣٧ .

عباس في ضوء الشعر العربي وبخاصة الشعر الجاهليّ .

وقد قمت بحصر هـذه الأبيات التي استشهـد بها ابن عبـاس في مجال الغريب فوجدتها بلغت ١٩٠ شاهداً .

علام يدل هذا ؟ ألا يدلعلى أن غريب القرآن الكريم لا يستوعبه إلا قلة من أولي العلم أمثال ابن عباس .

ويدل أيضاً على أن اللغة القرشية التي نزل معظم القرآن الكريم بها لم يستوعبها أبناؤها كل الاستيعاب بدليل هـذه الأسئلة المتعدّدة التي وجهت إلى ابن عباس .

ولا ننسى أن القرآن الكريم تطورت بعض الكلمات فيه لتأخذ معاني لم تكن لها قبل نزوله، بمعنـى آخر أقـول : إن كثيراً من الكلمـات اتّخذت لهـا مدلولات متطورة لم تكن لها من قبل بفضل ما أحدثه القرآن الكـريم من هذه الدّلالات المتطـورة ، ومن ثَمَّ كانت هذه الألفاظ أو الكلمات غريبة تحتاج إلى إيضاح .

وهذه الكلمات الغريبة والتي تحمل معاني إسلامية لم تكن لها من قبل هي ما نطلق عليها :

الكلمات الإسلامية

ومن خير من تناول هذه الكلمات القرآنية المتطورة هو أبو حاتم أحمد بن حمـدان الرازي المتوفى ٣٢٢هـ في كتابـه « الزينـة في الكلمات الإسـلاميـة العربيَّة » .

ويبين محقق الكتاب حسين بن فيض الله الهمذاني في مقدمة التحقيق منهج الرازي في تفسير هذه الكلمات المتطورة فيقول : « حاول صاحب الزّينة أن يفسر معاني الكلمات التي تغيرت مدلولاتها في العصر الإسلامي عما كانت عليه في العصر الجاهلي . . .

فهـو يبدأ أحيـاناً بشـرح الكلمة كمـا كانت مفهـومة عنـد العـرب قبـل

الإسلام . ثم يسير إلى أن يشرحها كما وردت في القرآن والحديث ويورد فيها آراء اللُّغويين والنَّحويين المتقدمين . وأحياناً نراه لا يراعي هذا التسلسل الزّمني . بل يبدأ بمدلولها الإسلامي ، ويستشهد بالقرآن والحديث ، قبل أن يَحْتَجّ بالشِّعر واللُّغة » .

ويبين المحقق في المقدمة أيضاً الهدف من تأليف هذا الكتاب فيقول متحدثاً عن الرَّازي : « ولم يكن هدفه جمع الأسماء العربيَّة ومعانيها ومصطلحات المسلمين إلَّا إيثار النَّفع لأهل الرَّغبة في العلم والأدب ولأهل الدين والحسب لسقوط مؤنة البحث عنه والمشقة في تتبُّع حرف بعد حرف منه في الكتب والشعر » .

وبين أيضاً سبب تسميته بكتاب « الزّينة » فيقول : « سماه كتاب « الزّينة » إذا كان من يعرف ذلك يتزين به في المحافل ، ويكون منقبة له عند أهل المعرفة »[١] .

ويشيد الرازي في كتابه باللغة العربية وفضلها قائلاً : « إنها أفصح اللغات وأكملها ، وأتمها وأعذبها وأبينها ، ولم يحرص الناس على تعلم شيء من اللّغات في دهر من الدّهور ولا في وقت من الأوقات كحرصهم على تعلم لغة العرب ، ولا رغبوا في شيء من القرون والأزمنة رغبة هذه الأمة في لسان العرب من بين الألسنة ، حتى أن جميع ـ الأمم فيها راغبون ، وعليها مقبلون ، ولها بالفضل مُقِرُّون وبفصاحتها معترفون ، وحتى نقلوا الكتب المنزلة مثل التوراة والإنجيل والزّبور ، وسائر كتب الأنبياء من السِّريانية والعبرانية إلى العربية ، ونقلوا ما قالته حكماء العجم من الفارسية إلى العربيَّة إلى أن يقول : و« حرصت كل أمة على تعلُّم العربية ليترجموا ما في أيديهم بها . ولم يرغب أهل القرآن والكتاب العربي في نقله إلى شيء من اللّغات ، ولا قدر أحد من الأمم أن يترجمه بشيء من الألسنة، ولو قدروا عليه لفشا ذلك منهم وجرت

---

(١) مقدمة المحقق لكتاب الزينة ٢٠/٢١ .

الألسنة به عندهم ، ولكن تعذر ذلك عليهم لكمال لغة العرب ، ونقصان سائر اللغات » .

ثم روى حديث عليّ كرم الله وجهه في جمال لغة العرب ، وسمو معانيها فقال : « روى الترّمذيّ عن محمد بن المنذر الهرويّ عن محمد بن عبد الله العتبي : قال علي كرَّم الله وجهه : كلام العرب كالميزان الذي يعرف به الزّيادة والنقصان ، وهو أعذب من الماء وأرقّ من الهواء ، إن فسرته بذاته استصعب . وإن فسرته بغير معناه استحال ، فالعرب أشجار وكلامهم ثمار ، يثمرون والناس يجتنون ، بقولهم يقولون ، وإلى علمهم يصيرون »[1] .

الكلمات الإسلامية :

أما الكلمات الإسلامية التي تناولها بالبحث في كتابه فأجملها في مقدمة تصديره لكتابه ، ثم بعد ذلك تناولها كلمةً كلمةً شارحاً ومعللاً ، ومحللاً ، ومستشهداً .

قال : ثم ذكرنا معاني أسماء الله عز وجل وصفاته ، وما يجوز أن يتأول فيها ، ومما جاءت في الشريعة مثل الأمر ، والخَلْق ، والقَدَر والقضاء والدُّنيا والآخرة ، واللوح والقلم ، والعَرْش ؛ والكرسي والملائكة وما لها من الأسامي والصِّفات ، والجن والأنس ، ومعنى ابليس ، والشياطين وما لها من الصفات مثل : الرجيم ، والمارد ، واللَّعين وغير ذلك ، والنَّار وما لها من الصفات مثل : لظى والسعير والحُطَمة ، والجحيم ، وجهنم والهاوية وسقر . ومعنى الصراط ، والأعراف ، ومعنى البَرْزخ ، ومعنى الثَّواب والعقاب والإثم والوَزر ، ومعنى القيامة ، ومعنى العالَم والحيوان والسّماء والأرض والفَلَك والبُروج ، والنَّجْم والكواكب ، والشَّمس والقمر . . .

ومعنى الرّوح والنفس ، والعقل والعلم ، والجهل والجاهلية . . . والهدى والضلال ومعنى الإسلام والإيمان ، والفرق بينهما . ومعنى الدِّين

---

(١) انظر الزينة ١/٦١ ـ ٦٣.

والشريعة والمنهاج ، والملَّة والأمَّة والفِطْرة والصِّبغة .... ومعنى الكفر والنِّفاق والشرك والإلحاد ، والظلم ، والفسق والفجور ، والحنيف ، والتَّوَّاب ، والأواب ، والأواه ، ومعنى المهاجرين والأنصار والربَّانيين والأحْبار والقسِّيسين والرُّهبان ... ومعنى الكتاب والقرآن ، والفرقان ، والوَحْي ، والتنْزيل والقصص ، والمثاني وأم الكِتَاب ... ومعنى السُّورة ، والآية ، والكلمة ، والحرف ... واشتقاق الصَّلاة وما فيها من الحدود مثل : الركوع والسُّجود والقنوت والوتر ، والتَّكبير والتَّسبيح والتَّهَجُّد ، والخشوع واشتقاق الزكاة ، والصدقة ، والحج والعمرة ، والقُربان والهدي والبُدْنَ ، والإشعار ، والمَشْعر ، والإفاضة .

ومعنى النِّكاح ، والطَّلاق ، والرَّجعة ، والإيلاء ، والظِّهار والحدّ ، والرَّجم والجلد ، والعَفْو والصَّرف ، والعَدْل ، والوسط . ومعنى الصبر والبصيرة ، والسَّكينة واليقين ...

ومعنى الجبت والطَّاغوت .. وذكر البَحِيرة ، والسائبة والوصيلة والحام ، وغير ذلك من معاني أسماء نذكرها ونذكر معانيها[1] .

أمثلة من هذه الكلمات الإسلامية والعربيَّة في ضوء منهج المؤلف :

لا نستطيع أن نعدد الكلمات الإسلامية التي شرحها وفق منهجه والتي قدّمنا على وجه الإجمال الكثير منها في صدر هذا البحث ، وإنما نكتفي بذكر ثلاث كلمات لتكون نموذجاً لغيرها ، لأننا لو عددنا ما ذكره لطال الكلام وطال ، والغرض من تأليف هذا البحث رسم الخطوط العريضة للتَّطوُّر اللُّغوي في ضوء التطور الاجتماعي .

أما الكلمات الثلاث فهي : القدَر ـ الأمر ـ الحنان .

(١) القدر :

القدر بفتح الدال وسكونها فيه لغتان : تقول العرب : قدَر الله ، وقدْر الله بفتح الدال وسكونها ، وقد جاء باللغتين في القرآن الكريم ، قال الله عز

---

(١) انظر : كتاب الزينة ١/٤٦ ـ ٤٨ بتصرف .

وجل : ﴿ إنا كُلّ شيء خلقناه بقَدَر ﴾[١] وقال : ﴿ إنا أنزلناه في ليلة القَدْر ﴾[٢] وقال : ﴿ قد جعل الله لكل شيء قَدْراً ﴾[٣] .

وليلة القَدْر ، قالوا : هي ليلة تقدير الأشياء كلها إلى آخر السنة . . ثم يقول : قال ابن أحمر في القدر :

« ولكل أمر واقعٍ قَدْرُ »[٤]

وقال الفرزدق :

وما صبَّ رجلي في حديد مجاشع مع القَدْر إلا حاجة لي أريدها[٥]

ويقال : للقَدْر كتاب ، كأنَّ كل شيء قد قدَّره الله قد كتبه .

وقال الجعدي :

يا بنت عمِّي كتاب الله أخرجني عنكم وهل أمنعنَّ الله ما فعلا[٦]

القدْر : التَّقدير ، قال الله عز وجل : ﴿ وكُلُّ شيء عنده بمقدار ﴾[٧] وهو مفعال من القَدْر .

والقَدْر في كلام العرب هو التقدير ، ويقال : قَدَرْت الثوب وقدّرته بالتخفيف والتثقيل وهو من التقدير ، وتفسيره : الهندسة ، والخيَّاط يقدّر الثوب قبل القطع ، وهو ثوب مقدَّر ، ثم يفصّله ، فالقَدر بمنزلة التَّقدير ، والقضاء بمنزلة التَّفصيل والقطع .

---

(١) القمر/٤٩ .
(٢) القدر/١ .
(٣) الطلاق/٣ .
(٤) صدره في الديوان: * كشراب قَيْل عَنْ مَطيتّه * والقَيْل = هو قيل بن عتر بن عاد في قصة ذكرت في هامش الديوان/٩١، وهو يريد أنه لها في شبابه كما لها قَيْلُ عن مطيتّه حين سحرته الجرادتان بغنائهما.
(٥) انظر اللسان : قدر
(٦) اللسان : كتب .
(٧) الرعد/٨ .

أسماء القدَر ومعانيه .

ومن أسماء القدر : الكتاب والمنيّة والزّوء ، فأما الكتاب فقد مضى تفسيره ويقول العرب : منَى لك الماني : أي قدَّر لك المقدّر.

وقال الشاعر :

منت لـك أن تـلاقيني المنـايـا أُحاد أُحاد في شَهْرَىْ حَلالِ[1]

مَنَتْ لك : أي قدّرتْ لك.

وأما الزوء ، فإنه يقال في تصريفه : زاء يزوء زوءًا كما يقول : قال يقول قولاً ، وقال عنترة :

ومـن زوّ الحـوادث يـوم جَـرْم عـلى ريْب ويـومَ بـني عـديّ[2]

قال أصحاب اللُّغة : الزّوء : القَدَر اللاَّزم ، وأنشدوا :

ومـا زال زوء الـدَّهـر حتى رأيتنـا على سُفُنٍ وسط الفُرات بنا تَجْرِي

قال : وإنما سمي زَوْءًا لأنه يزوء الشيء أي يذهب به . . ويقال : زاء به الدهر أي انقلب عليه يزوء به .

وفي القَـدَر معنى آخـر ، قـال الله عـز وجـل : ﴿ ومـا قَـدَروا الله حق قَدْره ﴾[3] أي ما عظموه حقَّ عَظَمَته ، ويقال : فلان عظيم القَدْر والجاه .

ويقال : قدر عليه رزقه بالتّخفيف أي ضيق عليه : قال الله عز وجـل : ﴿ وأمـا إذا ما ابتـلاه فقدّر عليـه رزقه ﴾[4] ومن خفف فـالفاعـل منه قـادر ، والقادر : المضيق في هذا المعنى ، والقادر : الغالب على كل شيء .

والقدير : بمعنى القادر ، قال الله عـز وجل : ﴿ قل هو القادر على أن يبعث

---

(١) اللسـان : « منى » .
(٢) انظر ديوان عنترة/١٩٢ من قصيدة مطلعها :
الأيـا دار عـبلة بـالـطويّ كـرَجْـع الـوشْـم فـي رُسْـغ الـهـديّ
(٣) الأنعام/٩١ وغيرها .
(٤) الفجر/١٦ .

عليكم عذاباً ﴾[1] .

قال بعض أهل التفسير ، أي يضيق ، والله أعلم .

يقال : قَدَر عليه بالتَّخفيف ، والمفعول : مقدور ، والفاعل : قادر ، ومن شدَّد فالفاعل مقدِّر بالكسر ، والمفعول به مُقدَّر بالفتح والتّشديد .

وروي عن عكرمة عن ابن عباس أنه سئل عن القَدَر ، فقال الناس فيه ثلاث منازل : من جعل للعباد في الأمر مشيئة فقد ضادّ الله في أمره ، ومن أضَاف إلى الله شيئاً مما تنزَّه عنه ، فقد افترى على الله افتراءً عظيماً ، ورجلٌ قال : إنْ رُحِمْتَ فبفضل الله ، وإن عُذِّبت فبعدل الله ، فذاك الذي سَلِم له دينهُ ودنياه جميعاً .

والقدْر عن طريق اللغة : هو تقدير الله الأشياء كلَّها أول مرة ثم قضاها ففصَّلها .

(٢) الأمر :

الأمر : قد جاء ذكر الأمر في كتاب الله عز وجل : وقد فسّره المفسرون على وجوه كثيرة ، وبالأمر كوَّن الله الأشياء كلَّها . قال الله عز وجل : ﴿**ألا لهُ الخَلْق والأمر** ﴾[2] ، ففرق بين الخَلْق والأمر . وأمره : كلمته التي كون بها الأشياء فقال : ﴿ **إنما أمرُهُ إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون** ﴾[3] ، فبهذه الكلمة ـ خلق الله الخلق كله .

وفي الإنجيل في أول الكتاب وفاتحته : « في البدء كانت الكلمة والكلمة كانت عند الله ، وبالكلمة خلق الله الأشياء كلَّها . هذا ما كان قبل كل شيء » وهذا هو أول الإنجيل ، وهو موافق لما في القرآن ، غير أن الذي في القرآن أشد اختصاراً .

وجوهٌ في معنى الأمر : وقالوا في تفسيره في قوله تعالى : ﴿**ألا له الخلق**

---

(١) الأنعام/٦٥ .
(٢) الأعراف/٥٤ .
(٣) يسٓ/٨٢ .

والأمر ﴾[1] : أن الخلق : القضاء ، والأمر هو الدين .

وفي قوله : ﴿ وتقطَّعوا أَمرَهم بينهم ﴾[2] أي دينهم .

وفي قوله : ﴿ إذ يتنازعون بينهم أَمْرَهُم ﴾[3] الأمر : القول وقالوا : الأمر أيضاً : العذاب في قوله : ﴿ وقال الشيطان لما قُضِي الأمر ﴾[4] أي وجب العذاب .

وقالوا : الأمر : القيامة في قوله : ﴿ أتى أمرُ الله فلا تستعجلوه ﴾[5] وقالوا : الأمر : الوَحْي ، قال الله عز وجل : ﴿ يتنزَّل الأمر بينهنَّ ﴾[6] فقد فسروا الأمر على هذه الوجوه كلها ، وهو وإن اختلف اللَّفظ به فإنه يرجع إلى معنى واحد ، لأن هذه الأشياء مكوَّنة بأمر الله فسميّت هذه كلها أمراً ، لأن الأمر سببها ، قال الله عز وجل : ﴿ ألا إلى الله تصير الأمور ﴾[7] .

فلما كانت هذه الاشياء كلها بأمره عز وجل ، وكان الأمر سببها سمِّيت أمراً ، لأن سبب الشيء يقوم مقام الشيء ، وهو معروف في لغة العرب أن يسمَّى الشيء باسم السَّبب ، كما قالوا للمطر : سماء لأنه من السماء ، ولأن السماء سبب المطر .

وقال أبو عبيدة في قوله عز وجل: ﴿وأرسلنا السماء عليهم مدراراً﴾[8] قال: مجازه: المطر،يقال:ما زلنا في سماء أي في مطر، وما زلنا نَطأُ السَّماء أي المطر، وأنشد غيره:

إذا نزل السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غِضابا[9]

---

(1) الأعراف/54 .
(2) الأنبياء/93 وغيرها .
(3) الكهف/21 .
(4) ابراهيم/22 .
(5) النحل/1 .
(6) الطلاق/12 .
(7) الشورى/53 .
(8) الأنعام/6 .
(9) انظر اللسان: « سما » ونسبه الى معاوية بن مالك .

فـأقام السـماء مقام المـطر ، وسماه بـاسمه ، لأن السَّـماء سبب للمطر والسـماء لا تنزل ، والسماء مؤنثة ، والمطر مذكر ، فلذلك قال : إذا نــزل السَّماء ، ولم يقل : نزلت ، وقال : رعيناه .

وقال الحُطيئة :

إذا نــزل الـشِّتــاء بــجــار قــوم تـجنـب جـار بيـتهـم الشـتـاء[1]

يعنِي بالشتاء : الضيق والشدة لما يلحق للناس من الضيق والشدة في الشِّتاء ، فأقام الشتاء مقام ذلك ، وسماه باسمه ، والشتاء ينزل بالغني والفقير ولا يجتنب أحداً »[2] .

(٣) الحنَان :

من صفاته عز وجل : الحنَّان :

الحَنان : التَّعطف والرحمة وهو المتعطف عليهم بـالرَّحمـة . قال عكـرمة في قوله عز وجل : ﴿ وحناناً من لَدُنَّا ﴾[3] ، قال : رحمة ، وقال مجاهد : تعطُّف من الله .

وقال أبو عبيـدة : « وحنانـاً من لدنَّـا » أي رحمة من عنـدنا ، وأنشـد لامرىء القيس :

ويمنحُهـا بنــو شَمْجَي بـن جَـرْم معيــزهُم حَنـانَـك ذا الحنـانِ[4]

وقال عامة النَّاس على لفظ الاثنين ، قال طرفة :

أيـا منــذر أفنيت فـاستَبْقِ بَعْضَنـا حنانيك بعض الشرِّ أهون من بعض[5]

قال أبو عمرو وغيره : حنانك : رحمتك ومغفرتك ، وقال بعضهم : معنـاه :

---

(١) انظر ديوان الحطيئة/٥٧ .
(٢) انظر كتاب الزينة ٢/١٢٩ - ١٣٠ بتصرُّف.
(٣) مريم/١٣ .
(٤) ديوان امرىء القيس/١٧٦ .
(٥) اللسان : « حنن » .

تبـاركت ، قال : « وهـذا كلُّه معروف عنـد العرب ، يقـال : قد تحنَّنت على فلان .

قال : وكان ابن عباس ينكر معرفتها ، وروى أبـو عبيد بـإسناد عن ابن عباس في قوله: ﴿وحناناً من لدنَّا﴾ قال: والله ماأدري: ما الحنان؟ وروي عنه في وجه آخر ، قـال : هو الرَّحمة ،قـال أبو عبيـد : وقد فسَّـره ابن عباس في حديث، وأنكره في حديث، وهو عندنا أثبت[1].

بعد هذه النماذج الثلاثة يتَّضح لنا أن الرازي كان خبيراً بهـذه الكلمات الإسلامية حيث ألقى الضوء عليها ليكشف تطورها ، والمعاني التي استجدَّت لها ، والمواقف التي تنسب إليها ، وهو في هذا ملتزم منهجه الذي أومأنا إليه من خلال مقدمته ، ويتلخَّص فيما يأتي :

١ ـ الاعتماد على ألفاظ العلماء وما جاء عن أهل المعـرفة باللُّغة وأصحـاب الحديث والمعاني .

٢ ـ الاحتجـاج بشعر الشعـراء المشهورين الـذين يحتـجُّ بشعـرهم في غريب القرآن ، وغريب الحديث .

٣ ـ تتبع الألفاظ النَّادرة وما يوجد له ذكر في الشريعة[2] من الأسماء .

ويعتبر هذا الكتاب بحق خير مـرجع لـلألفاظ الإسـلامية حيث قـدم لهاَ شرحاً واضحاً ، وهدفه من جميع هذه الألفاظ كما يقول المحقق في مقدمته : « هدف لغوي صرْف ، ويحاول أن يكون بعيداً عن اختلافات أصحاب الملل والنحل ، وبعيداً عن اختلاط النحوِّيين في دقائق النحو ، يحاول كل هذا إن وجد إلى ذلـك سبيلاً »[3] .

لون آخر من الغريب:

على أن هناك نوعـاً آخر من الغـريب ، وهو أن تحمـل اللفظة القـرآنية

---

(١) الزينة/٢/١٢١ ـ ١٢٢ .

(٢) انظر مقدمة المؤلف .

(٣) مقدمة التحقيق/ ٢١ .

معناها الُّلغوي مهما تكررت إلَّا موضعاً واحداً تخرج فيه عن معناها إلى معنى آخر ، وحينئذ نضعها تحت عنوان الغرائب في هذا المعنى الذي خرجت إليه .

وهذا اللون من الغريب مندرج تحت أقوال مبدوءة بـ « كل » مستثناه منها معانٍ معيَّنة لا تدخل تحت هذا الكُلّ وقد عنون لها السيوطي في « معترك الأقران » بالعنوان الآتي :

أقوال كُلِيّة محتوية على ألفاظ قرآنيّة :

من هذه الأقوال الكليَّة :

كلّ ما في القرآن من ذكر الأسف فمعناه : الحُزْن ، إلا :

﴿**فلما آسفونا**﴾[1] فمعناه : أغضبونا .

كلُّ ما فيـه من ذكر البُـروج فهي الكواكب إلا : ﴿ **ولـو كنتم في بروج مشيدة** ﴾[2] فهي القصور الطِّوال الحصينة .

كلُّ ما فيه من ذكر البرِّ والبَحْر ، فالمراد بالبحر الماء ، والبرّ التراب اليابس إلا قوله : ﴿ **ظهر الفساد في البر والبحر** ﴾[3] فالمراد به : البرْية والعمران .

كلُّ ما فيه من بخس، فهو النقص إلَّا قوله: ﴿**بثمن بخس**﴾[4] أي حرام.

كـلُّ ما فيـه من البَعْل فهـو الزوج إلا : ﴿ **أتـدعون بَعْـلاً** ﴾[5] ، فهـو الصنّم .

كلُّ ما فيه : جثيّاً فمعناه جميعاً إلا : ﴿ **وترى كل أمة جاثية** ﴾[6] فمعناه تجثو على رُكَبها .

---

(١) الزخرف/٥٥ .
(٢) النساء/٧٨ .
(٣) الروم/٤١ .
(٤) يوسف/٢٠ .
(٥) الصافات/١٢٥ .
(٦) الجاثية/٢٨ .

كلُّ ما فيه من « حُسبان » فمن العدد إلا : ﴿ حسباناً من السماء ﴾[1] في « الكهف » فهو العذاب .

كلُّ ما فيه من « حسرة » فالنّدامة إلا : ﴿ ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم ﴾[2] فمعناه : الحُزْن .

كلُّ ما فيه من « الدَّحض » فالباطل إلا : ﴿ فكان من المُدْحَضِين ﴾[3] فمعناه من المغلوبين .

كلُّ ما فيه من « رجز » فالعذاب إلا : ﴿ والرُّجز فاهجر ﴾[4] فالمراد به الصّنم .

كلُّ ما فيه من « ريب » فالشَّك إلا : ﴿ ريب المنون ﴾[5] يعني حوادث الدّهر .

كلُّ ما فيه من « الرجم » فالقتل إلا : ﴿ لَرَجَمْنَاكَ ﴾[6] لشتمناك .

كلُّ ما فيه من « الزُّور » فالكذب مع الشرك إلا : ﴿ منكراً من القول وزورا ﴾[7] فإنه كذب غير شرك .

كلّ ما فيه من « زكاة » فالمال إلا : ﴿ وحناناً من لدنا وزكاة ﴾[8] أي طهرة .

كلّ ما فيه من « الزيغ » فالميل إلا : ﴿ وإذْ زاغت الأبصار ﴾[9] أي شخصت .

---

(١) الكهف/٤٠ .
(٢) آل عمران/١٥٦ .
(٣) الصافات/١٤١ .
(٤) المدثر/٥ .
(٥) الطور/٣٠ .
(٦) هود/٩١ .
(٧) المجادلة/٢ .
(٨) مريم/١٣ .
(٩) الأحزاب/١٠ .

كـلّ سعير فيـه فهو النّـار والوقـود إلا : ﴿ في ضلال وسُعُـر ﴾[1] فهـو العناء .

كلّ « صلاة » فيه عبادة ورحمة إلا : ﴿ وصلوات ومساجد ﴾[2] فهي الأماكن .

كلّ كنز فيه مال : إلا الذي في « سورة الكهف »[3] فهو صحيفة عِلْم .

كلّ نكاح فيه تزوج إلا : ﴿ حتى إذا بلغوا النكاح ﴾[4] فهو الحُلُم .

كلّ نبأ فيه خبر إلا : ﴿ فعميت عليهم الأنباء ﴾[5] فهي الحُجَج .

كلّ إياس فيه قنوط إلا في « الرّعد »[6] فمن العِلْم .

وقبل أن أختم البحث في هذا النوع من الغريب أحب أن أسجل هنا أن النبي عليه السلام وأصحابه والتّابعين قد تعرّضوا لهذا اللّون من الغريب .

ما ورد عن النبي عليه السّلام :

أخـرج الإمـام أحمـد في مسنـده : عن أبي سعيـد الخُـدريّ عن رسول الله (ﷺ) : كلّ حرف في القرآن يذكر فيه القنوت فهو للطّاعـة هـذا إسناد جيّد ، وابن حَبّان يصحّحه .

ما ورد عن الصّحابة : ويمثّلهم ابن عباس رضي الله عنه :

عن ابن عباس قال : كلّ شيء في القرآن أليم فهو الموجع .

عن ابن عباس قال : كل شيء في القرآن : « قتل » فهو لَعْن .

عن ابن عباس قال : كـل تسبيح في القـرآن صلاة ، وكـلّ سلطان في القرآن حُجّة .

عن ابن عباس قال : كل شيء في القرآن : « الدين » فالحساب .

---

(١) القمر/٤٧ .
(٢) الحج/٤٠ .
(٣) ﴿ فأراد ربك أن يبْلُغا أشُدَّهما ويستخرجا كنزهما ﴾ الكهف/٨٢ .
(٤) النساء/٦ .
(٥) القصص/٦٦ .
(٦) الرعد/٣١ وهي : ﴿ أفلم ييْأس الذّين آمنوا ﴾ .

ما ورد عن التّابعين :

عن سعيد بن جبير : كلّ شيء في القرآن إفك فهو كذب .

عن مجاهد : كل شيء في القرآن : ﴿ إن الانسان كفور ﴾ يعنى به الكفار .

عن عمر بن عبد العزيز: كلّ شيء في القرآن: «خلود» فإنه لا أوبة له .

عن سفيان بن عيينة: ما سمى الله المطر في القرآن إلا عذاباً وتسميّه العرب: الغيث.

قال السيّوطي : قلت أستثني من ذلك : ﴿ إن كان بكم أذى من مطر ﴾[1] فإن المراد به الغيث مطلقاً. وقال أبو عبيدة: إذا كان من العذاب فهو أمطرت، وإذا كان من الرّحمة فهو مطرت[2].

---

(١) النساء/١٠٢ .

(٢) انظر معترك الأقران ٣/٥٦٢ ـ ٥٧٠ بتصرف .

مِنَ الغَريبِ قَضِيَّةُ فَوَاتِحِ السُّوَرِ المقطعة في القرآن الكريم

في القـرآن الكريم عـدّة سور مبـدوءة بحـروف من حـروف المعجم أو حروف الهجاء ، وهي سمة من سمات أسلوب القرآن الكريم ، لم تعهـد في أساليب العربيّة النثرية من قبل .

ومن ثمّ فانفراد القرآن الكريم بهذه السّمة وهـو الذي تحـدّى العرب أن يأتوا بعشر آيات مثله أو بـأقل سـورة من سُوره من حيث القِصـر ، ومع ذلـك عجزوا واستسلموا ـ ظاهرة تستحقّ البحث والتحليل .

والسّؤال الذي يطرح نفسه في هذه القضية . لِمَ تحـدّى القرآن العـرب بهذه الفواتح التي لم يهتدوا إلى معرفتها ، وتبيان أسرارها ؟ وكيف يتأتّى لهم التّحدي فيما لا يفهمون ؟ .

وللإجابة عن هذا التّسـاؤل نذكر أن علماء الأمّة المفسرين اتّجهوا إلى هـذه الفـواتـح اتّجاهين : اتجـاه سَلَفيّ ، واتجـاه خَلَفِيّ ، وإليـك بيـان الاتجاهين :

١ ـ الاتجاه السّلفي :

يمثـل هذا الاتّجـاه عامـر الشعبي ، وسفيـان الثّـوريّ ، وجمـاعـة من المحدثين .

وخلاصة رأيهم : أن هذه الفواتح « سرّ الله في القرآن ، ولله في كل كتاب من كتبه سرّ ، فهي من المتشابه الذي انفرد الله تعالى بعلمه ، ولا يجب أن يتكلم

فيها ، ولكن نؤمن بها ، وتقرأ كما جاءت[1] . .

وهذا الاتّجاه هو اتّجاه كبار الصّحابة كعمر ، وعثمان ، وابن مسعود الّذين رُوي عنهم هذا القول ، وهو : « الحروف المُقَطّعة من المكتوم الذي لا يُفَسّر »[2] .

ويؤيد هذا الاتّجاه من اللّغويين أبو بكر بن الأنباري ، فقد روى عن الرّبيع بن خُثيم قال « إن الله تعالى أنزل هذا القرآن فاستأثر منه بعِلْم ما شاء وأطلعكم على ما شاء ، فأمّا ما استأثر به لنفسه ، فلستم بنائليه ، فلا تسألوا عنه ، وأمّا الذي أطلعكم عليه فهو الذي تسألون عنه ، وتخبرون به ، وما بكل القرآن تعلمون ، ولا ما بكلّ ما تعلمون تعملون » .[3]

وعلّق أبو بكر بن الأنباري على الرّواية بقوله :

« قال أبو بكر : فهذا يوضّح أن حروفاً من القرآن سترت معانيها عن جميع العالم اختباراً من الله عز وجل وامتحاناً ، فمن آمن بها أثيب وسعد ، ومن كفر وشكّ أثم وبَعُد »[4] .

ويبدو أن القرطبي كان يميل إلى هذا الاتّجاه وهو الوقوف ، وعدم الخوض في فواتح لم يفسّرها الرسّول (ﷺ) ، فعلينا أن نلتزم بها في قراءتنا من دون أن نعلّل أو نحلّل ، ولذلك نراه يقول : « هذا القول في التّشابه»:

«والمتشابه: ما لم يكن لأحد إلى علمه سبيلٌ مِمّا استأثر الله تعالى بعلمه دون خَلْقه ، وذلك مثل وقت قيام السّاعة ، وخروج يأجوج ومأجوج ، والدّجّال وعيسى ، ونحو الحروف المقطّعة في أوائل السور »[5] .

٢ ـ الاتّجاه الثاني : وهو اتّجاه أهل التأويل :

وهذا الاتّجاه اتجاه غير مستسلم ، لأن شعاره إدمان النظر في هذه الفواتح وطول السّهر في معرفة أسرارها ، وبيان تأويلها . فالقرآن عربيّ ،

(١ ـ ٢ ـ ٣ ـ ٤) تفسير القرطبي ١٥٤/١ .

(٥) المصدر نفسه ١٥٤/١ ، ٩/٤ ، ١٠ .

وهذه الحروف ليست طلاسم سحرّية يقف العقل أمامها عاجزاً ، لأن هذا العقل أمره الله أن يتدبر في ملكوته : ﴿ أو لم ينظروا في ملكوت السموات والارض ﴾[1] أيعجز أن ينظر في كتاب الله وعليه أنزل ؟

ويمثّل هذا الاتجاه كما قال القرطبي : جمعٌ من العلماء كبير ، قال ما نصّه :

وقال جمع من العلماء كبير : بل يجب أن نتكلّم فيها ، ونلتمس الفوائد التي تحتها والمعاني التي تتخرّج عليها ، وهذا الجمع الكبير على رأسه الصّحابي الجليل ابن عباس ، فماذا قال ابن عباس ، وبماذا أوّل ؟

اختلف الرواة عن ابن عباس في معنى هذه الفواتح المقطعة على عدة أقوال أو تأويلات :

أهمها ما يلي :

- روي عن ابن عباس وعليّ أيضاً : أن الحروف المقطعة في القرآن اسم الله الأعظم إلا انه لا نعرف تأليفه منها .
- وروي عنه : أنها حروف دالّة على أسماء أخذت منها ، وحذفت بقيّتها كقول ابن عباس في قوله : ﴿ الٓمٓ ﴾[2] : الألف من« الله » ، واللّام من : « جبريل » والميم من : « محمد » (ﷺ) .
- وروي عنه : هي أقسام ، أقسم الله تعالى بها لشرفها وفضلها وهي من أسمائه .

وذكر القرطبي : أن بعض العلماء ردّ هذا القول فقال : لا يصحّ أن يكون قَسَماً لأن القسم معقود على حروف مثل : « إن » ، « قد » ، و« لقد » ، و« ما » ، ولم يوجد ها هنا حرْفٌ من هذه الحروف فلا يجوز أن يكون يميناً .

---

(١) الأعراف/١٨٥ .

(٢) البقرة/١ .

والجواب أن يقال : موضع القسم قوله تعالى : ﴿ لا ريب فيه ﴾[1] فلو أن أنساناً حلف فقال : والله هذا الكتاب لا ريب فيه لكان الكلام سديداً ، وتكون « لا » جواب القسم ، فثبت أن قول الكَلْبِيّ وما رُوي عن ابن عباس سديدٌ صحيحٌ »[2] .

رأي قتادة :

قتادة رضي الله عنه من التّابعين ، وله رأي في هذه الظاهرة ، وهو أنها أسماء القرآن كالفرقان[3] .

ـ رأي أبي العالية:

في رأي أبي العالية : أنه ليس منها حرف إلا وهو مفتاح اسم من أسماء الله تعالى .

ونسب إليه رأي آخر وهو أنّها حروف تدلّ على مدة المِلّة وهي حساب أبي جاد ونسب إليه رأي ثالث وهو: «ليس منها حَرْفٌ إلاّ وهو في مدة قوم وآجال آخرين »[4] .

رأي المفسّرين :

أ ـ رأي ابن عطيّة :

يرى ابن عطيّة رأي جمهور العلماء ، وهو أنه لا ضرر مطلقاً من تفسير هذه الفواتح وتأويلها ، « لأنا نجد العرب قد تكلَّمَت بالحروف المقطّعة نظماً ووضْعاً بدل الكلمات التي الحروف منها كقول الشاعر .

*قلت لها قفي فقالت قاف *

أراد : قالت : وقفت ، وكقول الشاعر :

بالخير خيرات وإن شرّ فا ولا أريد الشر إلا أن تا

---

(١) البقرة/٢ .

(٢) تفسير القرطبي ١٥٦/١ .

(٣) البحر المحيط ٣٤/١ .

(٤) البحر المحيط ٣٤/١ ، وتفسير القرطبي ١٥٦/١ .

أراد : وان شرا فشرّ ، وأراد : إلا أنْ تشاء .

والشواهد في هذا كثيرة ، فليس كونها في القرآن مما تنكره العرب في لغتها فينبغي إذا كان من معهود كلام العرب أن يطلب تأويله ويلتمس وجهه »[1] .

ومن المفسرين الذين أدلَوْا بدلوهم في هذه القضية بحق مع إدمان النظر وطول البحث ، ومداومة التمحيص جار الله الزّمخشريّ فماذا قال ؟ .

رأي الزمخشري :

الزمخشري مفسِّر بارع ، ومحلِّل دقيق ، يعرض عليك المشكلة بقوله :

فإن قلت : ولا يتركك حائراً شارداً بعد أن يثير فيك القضية ويفتح عقلك وقلبك لما يقول ، إنه يواجهك بسرعة بالجواب الذي يشفي الغليل ، ويردُّ الحائر ، ويوقظ الشارد .

وخلاصة رأيه في هذه القضية نوضحه في النقاط التالية :

أ ـ هي أسماء للسور :

يقول الزمخشري : «ما وجه وقوعها على هذه الصورة فواتِحَ للسور ؟

قلت : فيه أوجه :

أحدها : وعليه إطباق الأكثر أنها أسماء السوّر ، وقد ترجم صاحب الكتاب الباب الذي قصره على ذكرها في حدّ ما لا ينصرف بباب أسماء السُّور »[2] .

ـ ويطرح الزَّمخشري سؤالاً آخر في كونها أسماء للسور بقوله : « فإن قلت : فما معنى تسمية السُّور بهذه الألفاظ خاصة ؟

قلت : كأن المعنى في ذلك الإشعار بأن الفرقان ليس إلا كَلِمَةً عربيّة معروفة التركيب من مسميّات هذه الالفاظ كما قال عزَّ من قائل : ﴿ قرآناً عربيّاً ﴾[3] .

---

(١) البحر المحيط ١/٣٥ .
(٢) تفسير الكشاف ١/٨٣ .
(٣) يوسف/٢ .

ويثير في هذه التّسمية سؤالاً آخر فيقول :

« فإن قلت : فما بالها مكتوبة في المصحف على صور الحروف أنفسها لا على صور أسمائها ؟ .

قلت : لأن الكَلِم لمّا كانت مركبة من ذوات الحروف ، واستمرّت العادة حتى تهجيت وحتى قيل للكاتب اكتب: كيت وكيت أن يلفظ بالأسماء، وتقع في الكتابة الحروف أنفسها عمل على تلك الشاكلة المألوفة في كتابة هذه الفواتح » .

وبعد أن فرغ الزمخشريّ من عرض الوجه الأول لهذه الفواتح أخذ يعرض علينا الوجه الثّاني فماذا قال :

- الوجه الثاني :

أن يكون ورود هذه الأسماء هكذا مسرودة على نمط التّعدد كالإيقاظ ، وقرع العصا لمن تحدى بالقرآن ، وبغرابة نَظْمه ، وكالتّحريك للنظر في أن هذا المتلوّ عليهم ، وقد عجزوا عنه عن آخرهم كلامٌ منظوم من عين ما ينظمون منه كلامهم، ليؤديهم النّظر إلى أن يستيقنوا إن لم تتساقط مقدرتهم دونه، ولم تظهر معجزتهم عن أن يأتوا بمثله بعد المراجعات المتطاولة ، وهم امراء الكلام ، وزُعماء الحوار ، وهم الحُرَّاص على التساجل في اقتضاب الخطب والمتهالكون على الافتنان في القصيد والرَّجز ، ولم يبلغ من الجزالة وحسن النظم المبالغ التي بزّت بلاغة كل ناطق، وشقّت غُبار كل سابق، ولم يتجاوز الحد الخارج من قوى الفصحاء ، ولم يقع وراء مطامع أعين البصراء إلا لأنه ليس بكلام البشر؛ وأنه كلام خالقِ القُوى والقُدَر.

ثم عقب الزّمخشري على هذا الوجه الثاني بقوله : « وهذا القول من القوة والخلاقة ، بالقبول بمنزل »[1] .

ويختم الزمخشري بحثه في هذه الظاهرة بعرض الوجه الثالث في معنى هذه الفواتح والتعليق عليه .

---

(١) انظر تفسير الكشاف ١/ ٩٥ ، ٩٧ .

الوجه الثالث :

أن ترد السورة مصدَّرة بذلك ، ليكون أول ما يَقْرَعُ الأسماع مستقلاً بوجه من الإغراب ، وتقدمة من دلائل الإعجاز ، وذلك أن النطق بالحروف أنفسها كانت العرب فيه مستوية الأقدام ، الأمِّيُّون منهم وأهل الكتاب بخلاف النطق بأسامي الحروف ، فإنه كان مختصاً بمَنْ خطَّ وقرأ ، وخالط الكُتَّاب ، وتعلَّم منهم ، وكان مستغرباً مستبعداً من الأمِّي ليتكلَّم بها .

ويقوم الزمخشري بعد عرض هذه الأوجه الثلاثة بدراسة إحصائية لغوية لهذه الفواتح ، وهذه لفتة ذهنية بارعة لم أجدها فيما أعلم إلاَّ عند الزمخشري ، إنَّه استطاع أن ينظر في حروف المعجم ، وقد توصَّل من خلال هذا النظر إلى ما يلي :

قال رحمه الله : واعلم أنك إذا تأملت ما أورده الله عز سلطانه في الفواتح من هذه الأسماء وجدتها نصف أسامي حروف المعجم أربعة عشر سواء ، وهي الألف ـ واللاّم ـ والميم ـ والصاد ـ والراء ـ والكاف ـ والهاء ـ والياء ـ والعين ـ والطاء ـ والسّين ـ والحاء ـ والقاف ـ والنون في تسع وعشرين سورة على عدد حروف المعجم .

ثم إذا نظرت في هذه الأربعة عشر وجدتها مشتملة على أنصاف أجناس الحروف .

بيان ذلك أن فيها من المهموسة نصفها : الصّاد ، والكاف ، والهاء ، والسِّين ، والحاء .

ـ ومن المجهورة نصفها : الألف ، والكاف ؛ والطاء ، والقاف .

ـ ومن الرَّخوة نصفها : اللام ، والميم ، والرَّاء ، والصاد ، والهاء ، والعين ، والسين ، والحاء ، والياء ، والنون .

ـ ومن المطبقة نصفها : الصاد والطاء .

---

(١) المصدر نفسه ١/٩٩ ، ١٠٠ .

ـ ومن المنفتحة نصفها : الألف ، واللّام ، والميم ، والراء ، والكاف ، والهاء ، والعين ، والسّين ، والحاء ، والقاف ، والياء ، والنون .

ـ ومن المستعلية نصفها : القاف ، والصاد ، والطاء .

ـ ومن المنخفضة نصفها : الألف ، واللام ، والميم ، والراء ، والكاف ، والهاء ، والياء ، والعين ، والشين ، والحاء ، والنون .

ـ ومن حروف القلقلة نصفها : القاف والطاء .

ثم اذا استقريت الكلم وتراكيبها رأيت الحروف التي ألغى الله ذكرها من هذه الاجناس المعدودة مكثورة بالمذكورة منها ، فسبحان الذي دقّت في كل شيء حكمته .

وقد علمت أن معظم الشيء وجلّه ينزل منزلة كله ، وهو المطابق للطائف التنزيل واختصاراته، فكأن الله عز اسمه عدَّد على العرب الألفاظ التي فيها تراكيب كلامهم إشارة إلى ما ذكرت من التبكيت لهم ، وإلزام الحجة إياهم[1] .

وهكذا أمتعنا الزمخشري بهذا البحث القيّم عن فواتح السُّور ، وإنه لبحث رائع ، وضع النّقاط على حروفها ، مبيّناً أسرار هذه الفواتح ، كاشفاً عن معاني هذه الحروف في ضوء الدراسة المستوعبة والإحصاء الدقيق، والحس اللغوي المرهف .

رأي الدكتور زكي مبارك من المحدثين :

في كتاب « النثر الفني » للدكتور زكي مبارك مقارنة بين النثر الفنّي الجاهليّ والإسلامي ونثر القرآن ، تعرَّض لقضية هذه الفواتح ، فبعد أن ذكر جملة من الفروق بين النثر القرآني والنثر الجاهليّ أو الإسلامي ذكر في الفرق الرَّابع ما نصه :

رابعاً: الابتداء بألفاظ غير مفهومة مثل : آلم ، حمَ،طسَم، الر ، صَ ، نَ ،

(١) تفسير الكشاف للزمخشري/١٠٠ ـ ١٠٣ بتصرف .

قٓ ، إلى آخر تلك الفواتح التي اختلف في تأويلها المفسِّرون ، والتي لم يَهْتد أحدٌ إلى المراد منها بالتّحديد ، وهذا النّمط من الابتداء لم تجده في النصوص الأدبية الجاهلية ولا الإسلامية »[1] .

ويعلق الدكتور زكي مبارك في هامش الكتاب على هذه القضية بذكر رأي « المسيو بلانشو » BLANCHOT وهو أن الحرف المٓ ـ الرٓ ـ حمٓ ـ طسمٓ ، هي إشارات وبيانات موسيقيّة يقيمها المرتِّلون وقد كانت الموسيقى قديماً بسيطة يشار إلى ألحانها بحرف أو حرفين أو ثلاثة وكان ذلك كافياً لتوجيه المغني او المرتلّ إلى الصوت المقصود.

ويؤيد الدكتور زكي مبارك رأي هذا المستشرق بقوله :

« ويؤيد رأي « المسيو بلانشو » أن « المٓ » تنطق هكذا عند الترتيل « ألف ـ لام ـ ميم » فهي ليست رمزاً كتابياً ، ولكنها رموز صوتية ، ومن المحتمل أن تكون تقاليد التّرتيل في القرآن الكريم سارت على طريق كان معروفاً عند أهل الجاهليّة .

ومن الواضح أن القرآن لم يكن من همِّه أن يخالف الجاهليين في كلِّ شيء حتى في الأصوات الموسيقية ، فليس بمستبعد أن تكون فواتح السُّور إشارات صوتيّة لتوجيه التّرتيل ، وأن تكون متابعةً لبعض ترانيم الجاهليين » .

ومع تأييده لهذا الرأي وقيمته ، فإنه رأيٌ يحمل أسباب ضعفه ، وذلك لأن المفسِّرين لم يعطوه ما يستحقّ من العناية مع تطوعهم بعرض كثير من الفروض ، ولو أنه كان معروفاً في الصَّدْر الأول لما تعرض لمثل هذا الإغفال »[2] .

على أية حال كانت ، فإن الزمخشري سبق هذا المستشرق في رأيه حينما عرض أوجه المعاني لهذه الفواتح ذكر في بعضها أن هذه الفواتح تنبيه

---

(١) النثر الفني/٤٧ .
(٢) انظر النثر الفني وهامشه/٤٧ .

وقَرْعٌ لأسماع العرب قبل ابتداء القراءة ليهيئوا أذهانهم ، ويرهفوا أسماعهم لما يُتْلى بعد ذلك .

وفي رأيي أن هذه اجتهادات عقليَّة قد تصيب وتخطيء وما تستريح إليه النفس أن منهج السلف في عدم الخوض في معانيها والهجوم على تفسيرها منهج سليم ، لأنها من المتشابهات التي استأثر الله تعالى بعلمها .

فواتح السور والإعراب

تناول سيبويه في كتابه هذه الحروف من حيث الإعراب ومن حيث الصَّرف والمنع من الصَّرف ، وتناول الفواتح فاتحة فاتحة فقال :

(١) ﴿ حمٓ ﴾ :

قال : « وأما حَم فلا ينصرف جعلته اسماً للسورة أو أضفته إليه ، لأنهم أنزلوه بمنزلة اسم أعجميّ ، نحو : هابيل ، وقابيل » ، وقال الشاعر ، وهو الكُمَيْت :

وجدنا لكم في آل حاميم آية تأوّلها منا تَقِيٌّ ومُعْرِبُ

وكذلك طاسين وياسين .

واعلم أنه لا يجيء في كلامهم على بناء حاميم وياسين .

وإن أردت في هذه الحكاية تركته وقفاً على حاله .

وقد قرأ بعضهم : ﴿ ياسينَ والقرآنِ ﴾[1] و ﴿ قافَ والقرآنِ ﴾[2] ، فمن قال هذا فكأنه جعله اسماً أعجمياً ، ثم قال : اذكر ياسين »[3] .

(٢) ﴿ صٓ ﴾ :

قال سيبويه : « وأما صاد » فلا تحتاج إلى أن تجعله اسماً أعجمياً ، لأن

---

(١) هي قراءة عيسى بن عمر ، وابن أبي إسحاق . انظر : إعراب القرآن لابن النحاس ، ٧٠٧/ والمحتسب ٢٠٣/٢ ، وتفسير الفخر الرّازي ٤٠/٢٦ .

(٢) وهي قراءة عيسى بن عمر . انظر المصادر السابقة .

(٣) كتاب سيبويه ٢٥٦/٣ .

هذا البناء والوزن من كلامهم ، ولكنّه يجوز أن يكون اسماً للسورة فلا تصرفه .

(٣) ﴿ طسم ﴾ :

قال سيبويه : وأما « طَسم » فإن جعلته اسماً لم يكن بُدٌّ من أن تحرِّك النّون[١] وتصير ميماً كأنك وصلتها إلى طاسين ، فجعلتها اسماً واحداً بمنزلة : دارب جرْد[٢]، وبَعْل بَكٍّ.

وإن شئت حكيت ، وتركت السّواكن على حالها .

(٤) ﴿ كهيعص ﴾ و ﴿ المر ﴾ :

قال سيبويه : وأمّا « كهيعص » و « المَر » فلا يكن إلّا حكاية . وإن جعلتها بمنزلة طاسين لم يجز ، لأنهم لم يحملوا طاسين كحضرمَوْت ، ولكنهم جعلوها بمنزلة : هابيل ، وقابيل ، وهاروت .

وإن قلت : أجعلها بمنزلة : طاسين ميمَ لم يجز ، لأنك وصلت ميماً إلى طاسين ، ولا يجوز أن تصل خمسة أحرف إلى خمسة أحرف ، فتجعلهن اسماً واحداً .

وإن قلت : أجعل الكاف والهاء اسماً ، ثم اجعل الياء والعين اسماً ، فإذا صارا اسمين ضممت أحدهما إلى الآخر فجعلتها كاسم واحد لم يجز ذلك ، لأنه لم يجيء مثل حضرموت في كلام العرب موصولاً بمثله ، وهذا أبعد لأنك تريد أن تصله بالصاد .

فإن قلت : أدعه على حاله ، وأجعله بمنزلة إسماعيل لم يجز ، لأن إسماعيل قد جاء عدة حروفه على عدة حروف أكثر العربيّة نحو : أشهيباب . و « كهيعص » ليس على عدة حروفه شيء ، ولا يجوز فيه إلّا الحكاية»[٣].

---

(١) أي النون في نطق يسّ .

(٢) دُرابِ جرْد: اسم موضع كما في اللسان.

(٣) كتاب سيبويه ٣/٢٥٦ وما بعدها.

وبعـد فقد أثـارت هذه الفـواتح مشكـلات عـدة ، وقـد عـرضنـا هـذه المشكلات في ضوء الدّراسة والبحث ، ولعلّي بهذا العرض أكون قد أعطيت القارىء فكرة واضحة عن هذه الـظاهرة اللّغـوية القـرآنية في معناها من حيث الدّلالة وفي تركيبها من حيث الإعراب .

(٥) ﴿ ن ﴾ :

قال سيبويه : « وأما نون فيجوز صرفها في قول من صرف هنداً ، لأن النون تكون أنثى فترفع وتنصب »[1] .

---

(١) انظر هذه النصوص في سيبويه ٣/٢٥٦ ـ ٢٥٩ تحقيق أستاذنا هارون بتصرف .

قضيّة المشترك اللفظي في القرآن الكريم

من غريب القرآن الكريم : « المشترك اللفـظي » ، والمشترك اللفـظيّ كمـا بين السيّـوطي في « معتـرك الأقـران » أنـه من أعـظم إعجـاز القـرآن الكريم « حيث كانت الكلمة الواحدة تتصرّف إلى عشرين وجهاً وأكثر وأقل ولا يـوجد ذلـك في كلام البشـر » وينكر أستـاذنا الـدكتور/إبـراهيم أنيس إطلاق المشترك اللفظي على الكلمة الواحـدة التي تؤدي إلى معـانٍ متعـدّدة ، وعند التدقيق فيها، والتحليل لها يبدو أن هناك علاقاتٍ بين معانيها التي وضعوها لها.

ويثبت فقط المشترك اللفظي في الكلمة الواحدة التي تؤدي إلى معانٍ متباينة ، ليس بينها علاقات أو ترابط . يقول ما نصه : « إذ ثبت لنا من نصوصٍ أن اللفظ الواحد قد يعبر عن معنيين متباينين كلّ التباين سمّينا هذا بالمشتـركْ اللّفظي . أما إذا اتّضَحَ أن أحد المعنيين هو الأصل ، وأن الآخر مجازٌ له فلا يصحّ أن يعد مثل هذا من المشترك اللّفظيّ في حقيقة أمره » ويستند الدكتـور إبراهيم أنيس إلى رأي ابن درستويهْ حين أنكر معظم تلك الألفاظ التي عدّت من المشترك اللفظي ، واعتبـرها من المجـاز ، فكلمة الهـلال حين تعبّر عن هلال السّماء ، وعن حديدة الصّيد التي تشبه في شكلها الهلال ، وعن هلال النّعل الذي يشبه في شكله الهلال لا يصحّ إذاً أن تعدّ من المشترك اللفظي ؛ لأن المعنى واحـد في كـل هـذا ، وقـد لعب المجـاز دوره في كـلّ هـذه الاستعمالات » .

ثم يقول : « ذلك لأن المشترك اللّفظي الحقيقي إنما يكون حين لاتلمح

أي صلة بين المعنيين ، كأن يقال لنا مثلاً : إن الأرض هي الكرة الأرضية ، وهي أيضاً : الزكام !! وكأن يقال لنا : « إن الخَــال هو أخو الأم ، وهو الشّامة في الوجه ، وهو الأكمة الصغيرة »(١) .

ويؤكـد الدكتـور إبراهيم أنيس أيضـاً : أن القرآن الكـريم لم يقـع فيـه المشترك اللّفظيّ إلا قليلاً جدّاً ونادراً ، فيقول : « ويندر أن تصادفنا كلمة مثل « أمّـة » التي استعملت في القـرآن . بمعنى « جمـاعـة من النـاس » وبمعنى الحين في قوله تعالى : ﴿ وادّكـر بعد أمة ﴾(٢) وبمعنى الدين في قوله : ﴿ إنا وجدنا أباءنا على أمّـةٍ ﴾(٣) .

وواقع الأمر أن ما ذكره أستاذنا يختلف كل الاختلاف عما ذكره الأقدمون والمتأخرون في أن المشترك اللفظيّ وقع في القرآن الكريم بكثرة سواء كانت المعاني الدّلالية للفظة الواحدة متقاربة أو متباعدة .

وهناك من الآثار والأخبار ما لا يتفق مع ما ذكره أستاذنا الفاضل فقد قـال مقاتل بن سليمان في صدر كتابه : « المصنّف » في هذا المعنى حديثاً مرفوعاً وهو : « لا يكون الرجل فقيهــاً كُلّ الفقه حتى يرى للقرآن وجوهاً كثيرة »(٤) .

وقد فسّر بعضهم هذا الحديث المرفوع بأن المراد أن يرى اللفظ الواحد يحتمـل معاني متعددة فيحمله عليها إذا كانت غير متضادة ، ولا يقتصر به على معنى واحد .

وقصّة علي بـن أبي طالب مع ابن عباس معروفة في التاريخ الإسلامي فحينما أرسل علي كرم الله وجهه ابن عباس إلى الخوارج ، قال : اذهب إليهم وخاصمهم ، ولا تخاصمهم بالقرآن ، فإنه ذو وجوه ولكن خاصمهم بالسّنة .

وفي وجْهٍ آخر قال له : « يا أميـر المؤمنين : فأنـا أعلم بكتاب الله ، في

---

(١) دلالة الالفاظ ٢١٣ ، ٢١٤ .
(٢) يوسف/٤٥ .
(٣) الزخرف/٢٣ .
(٤) معترك الأقران ٥١٤/١ ، ٥١٥ .

بيوتنا نزل ، قال : صدقت ، ولكن القرآن حمّال على وجوه ، تقول ، ويقولون ، ولكن حاجّهم بالسّنن ، فإنهم لن يجدوا عنها محيصاً ، فاخْرُجْ إليهم فحاجّهم بالسّنن ، فلم يبق بأيديهم حجة »[١] .

على أن السّيوطّي في المزهر وضع تعريفاً واضحاً للمشترك اللفظي ، عارضاً آراء اللغويين في هذا النّوع من الكلام أو التعبير ، يقول عن المشترك اللفظي ما نصه : « . . . حَدّهُ أهل الأصول بأنه اللفظ الواحد الدّالّ على معنيين مختلفين فأكثر دلالة على السّواء عند أهل اللغة .

واختلف الناس فيه ، فالأكثرون على أنه مُمْكن الوقوع لجواز أن يقع إمّا من واضعين بأن يضع أحدهما لفظاً لمعنىً ، ثم يضعه الآخر لمعنى آخر ، ويشتهر ذلك اللّفظ بين الطائفتين في إفادة المعنيين ، وهذا على أن اللغات غير توقيفيّة ، وإمّا من وضع واحد لغرض الإبهام على السّامع حيث يكون التّصريح سبباً للمفسدة ، كما روي عن أبي بكر الصّديق رضي الله عنه ـ وقد سأله رجل عن النّبيّ (ﷺ) وقت ذهابهما إلى الغار : من هذا ؟ قال : هذا رجل يهديني سواء السّبيل .

والأكثرون على أنه واقع لنقل أهل اللغة ذلك في كثير من الألفاظ .

ومن النّاس من أوجب وقوعه ، لأن المعاني غير متناهية والألفاظ متناهية ، فإذا وزّع لزم الاشتراك[٢] » .

ويطالعنا في مجال المشترك اللفظي كتاب « التصاريف » وهو ليحيى بن سلاّم الذي قدمت له وحققته الأستاذة هند شلبي[٣] ، والعنوان الكامل له : « التصاريف تفسير القرآن مما اشتبهت أسماؤه ، وتصرّفت معانيه » ومؤلفه يحيى بن سلام من أوائل المفسرين لأنه توفي ٢٠٠ هـ .

والتصاريف « هو دراسة ألفاظ تكرر ورودها في القرآن الكريم مع ذكر

---

(١) معترك الأقران ١/٥١٤ ، ٥١٥ .
(٢) المزهر ١/٣٦٩ .
(٣) طبع سنة ١٩٨٠ نشر الشركة التونسية .

معانيها المختلفة التي جاءت بها في الآيات ، يعني إيراد الوجوه التي يصرف إليها اللفظ الواحد في القرآن »[1] .

والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن هنا هل هذه التّصاريف للفظة الواحدة حيث جاءت متعدِّدة الوجوه ـ توجد بينها علاقات أو ارتباطات؟ .

أكبر الظّن أن هذه العلاقات ترتبط بالسياقات المتعدّدة للفظة الواحدة ، فالسِّياق إذاً هو السبب المباشر للوجوه المتعدّدة للّفظة الواحدة .

وهذا النوع من المشترك اللفظي جعله بعضهم كما يقول الزركشيّ من أنواع معجزات القرآن : « حيث كانت الكلمة الواحدة تتصرف إلى عشرين وجهاً أو أكثر أو أقل ، ولا يوجد ذلك في كلام البشر »[2] .

نماذج من غريب القرآن
المسمّى المشترك اللّفظيّ

هناك عدة أمثلة لهذا المشترك اللفظي الذي ورد في القرآن الكريم ، وهي أمثلة لا نستطيع أن نستوعبها في هذا البحث ، لأن هناك مصنّفات متعددة في هذا الموضوع ، فقد صنف فيه قديماً مُقاتل بن سليمان ، وجمع من المتأخرين أمثال ابن الزاغوني المتوفّى ٥٢٧ هـ ، وأبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزيّ المتوفّى ٥٩٧ هـ ، والدامغاني محمد بن علي بن محمد الحنفي المتوفى سنة ٤٨٧ هـ ، وأبو الحسين بن فارس المتوفى سنة ٣٩٥ هـ ، وسمى كتابه «الإفراد» .

ولنقتصر فقط في هذا الموضع على ذكر ثلاثة نماذج من كتاب التّصاريف حول ثلاث كلمات ، وهي : الهُدى ، والكفر ، وسواء .

(١) هُدى

لكلمة « هُدى » سبعة عشر وجهاً :

---

(١) انظر مقدمة التحقيق ١/ ١٠ .
(٢) البرهان في علوم القرآن ١٠٢/١ .
(٣) انظر البرهان ١٠٢/١ .

الوجه الأول : البيان . وذلك قوله في البقرة : ﴿ أولئك على هدى من ربّهم ﴾[1] .

الوجه الثاني : دين الإسلام ، وذلك قوله في الحج : ﴿ إنّك لعلى هُدًى مستقيم ﴾[2] . يعني على دين مستقيم حق وهو الإسلام .

الوجه الثالث : الإيمان : وذلك قوله في سورة مريم ﴿ ويزيد الله الذين اهتَدوْا هُدًى ﴾[3] . يعني يزيدهم إيماناً .

الوجه الرابع : هدى يعني دعاء ، وذلك في الرّعد ﴿ ولكل قوم هاد ﴾[4] . يعني داعياً ، يعني نَبِيّاً .

وفي الأنبياء : ﴿ وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا ﴾[5] .

الوجه الخامس : هدى يعني معرفة وذلك قوله في النّحْل: ﴿ وبالنّجم هم يهتدون ﴾[6] ، يعني يعرفون الطرق .

الوجه السادس : هدى يعني أمراً ، يعني أمر النبي ، وذلك قوله في : « الذين كفروا » : ﴿ مِنْ بَعد ما تبيَّن لهم الهدى ﴾[7] ، يعني أمر محمد أنه رسول الله ، وقامت عليهم الحجة بالنّبيّ والقرآن .

الوجه السابع : هدى يعني رُشداً ، وذلك قوله في القصص ﴿ عسى ربي أنْ يَهْديني ﴾[8] .

الوجه الثامن : هدى يعني رُسُلاً وكُتُباً ، وذلك قوله في البقرة : ﴿ فإمَّا يأتينّكم منّي هُدى ﴾[9] يعني رُسُلاً وكتباً .

---

(١) البقرة/٥ .
(٢) الحج/٦٧ .
(٣) مريم/٧٦ .
(٤) الرعد/٧ .
(٥) الانبياء/٧٣ .
(٦) النحل/١٦ .
(٧) محمد/٢٥ .
(٨) القصص/٢٢ .
(٩) البقرة/٣٨ .

الوجه التاسع : هدى يعني القرآن ، وذلك قوله في النَّجْم : ﴿ **ولقد جاءهم من رَبِّهم الهُدى** ﴾[1] يعني القرآن وفيه بيان كلِّ شيء .

الوجه العاشر : هدى : يعني التوراة ، وذلك قوله في حمٓ (المؤمن) : ﴿ **ولقد آتينا موسى الهُدى** ﴾[2] .

الوجه الحادي عشر : هدى يعني التَّوفيق ، وذلك قوله في البقرة : ﴿ **وأولئك هم المهتدون** ﴾[3] .

الوجه الثاني عشر : هدى : لا يهدي ، وذلك قوله في البقرة : ﴿ **والله لا يهدي القوم الظالمين** ﴾[4] المشركين لا يهديهم إلى الحُجَّة ، ولا يهديهم من الضلالة إلى دينه .

الوجه الثالث عشر : هدى يعني التوحيد ، وذلك قوله في القصص : ﴿ **إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا** ﴾[5] يعني التوحيد وهو الإيمان .

الوجه الرابع عشر : هدى يعني سُنَّة ، وذلك قوله في الزخرف ﴿ **وإنَّا على آثارهم مهتدون** ﴾[6] يعني مستنون سنتهم في الكُفْر .

الوجه الخامس عشر : هدى يعني التوبة : وذلك قوله في الأعراف : ﴿ **إنَّا هُدْنا إليك** ﴾[7] تفسير مجاهد وقتادة « إنا تُبنا إليك » .

الوجه السادس عشر : يهدي : يصلح ، وذلك قوله في سورة يوسف ﴿ **وأن الله لا يهدي كيد الخائنين** ﴾[8] .

---

(١) النجم/٢٣ .
(٢) المؤمن/٥٣ .
(٣) البقرة/١٥٧ .
(٤) البقرة/٢٥٨ .
(٥) القصص/٥٧ .
(٦) الزخرف/٢٢ .
(٧) الأعراف/١٥٦ .
(٨) يوسف/٥٢ .

الوجه السابع عشر : هدى يعني الإلهام ، وذلك قوله في طه : ﴿ الذي أعطى كلَّ شيء خَلْقَه ثم هَدى ﴾[1] .

٢ ـ الكُفْر :

الكفر على أربعة وجوه :

الوجه الأول : الكفر يعني الكفر نفسه ، يعني الكفر بتوحيد الله والإنكار له ، وذلك قوله في سورة البقرة : ﴿ إن الـذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم﴾[2] يقول : إن الـذين كفروا بتوحيد الله الذين يلقون الله بكفرهم .

الوجه الثاني : الكفر يعني الجحود : وذلك قوله في البقرة ﴿ فلمَّا جاءهم ما عَرَفوا كفروا به ﴾[3] يعني جَحَدوا به ، وهم يعرفونه .

الـوجـه الثـالث : الكفـر يعني كفـر النِّعمة ، وذلـك قـولـه في البقـرة ﴿ واشكروا لي ولا تكفرون ﴾[4] : ولا تكفروا نعمتي .

الوجه الـرابع : الكفـر يعنـي البراءة ، وذلـكقولـه في « المُمْتَحِنة » : ﴿ كفرّنا بكم ﴾[5] يعني تبرّأنا مِنْكُـم ، قال الحسن: كَفَرْنا بولايتكم في الدِّين.

٣ ـ سواء :

سواء على ستة وجوه :

الوجه الأول : سواء يعني عَدْلاً ، وذلك قوله في « آل عمران » :﴿ قل يا أهل الكتاب تعالَوْا إلى كَلِمَة سواء بيننا وبينكم ﴾[6] يعني عدلاً بينناوبينكم .

الوجه الثاني : سواء يعني وسَطاً ، وذلك قوله في الصَّافات :﴿ فرآه في سواء الجحيم ﴾[7] .

---

(١) طه/٥٠ .
(٢) البقرة/٦ .
(٣) البقرة/٨٩ .
(٤) الآية/١٥٢ .
(٥) الممتحنة/٤ .
(٦) آل عمران/٦٤ .
(٧) الصافات/٥٥ .

الوجه الثالث : سواء يعني أمراً بيِّناً ، وذلك قوله في الأنفال : ﴿ **فانبذ إليهم على سواء** ﴾[1] يعني على أمْرٍ بيِّن .

الوجه الرّابع : سواء يعني شَرْعاً ، وذلك قوله في سورة الحج :﴿**سواء العاكف فيه والباد** ﴾[2] يعني أهل مكة والباد هم في بيوتها شَرْعاً سواء .

الوجه الخامس: سواء يعني قَصْداً، وذلك قوله في القصص:﴿ **عسى ربي أن يهديني سواء السبيل** ﴾[3] .

الوجه السادس : سواء يعني سواء في الاستواء وذلك قوله في البقرة : ﴿ **سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تُنْذرهم لا يؤمنون** ﴾[4] يعني أناساً من كفار العرب لأنه طبع على قلوبهم ، إن أنذرت الكفار أم لم تنذرهم فهو عليهم سواء[5] .

في ضوء هذه النماذج الثلاثة نستطيع القول بأن هذه الوجوه المتعدِّدة لكل لفظة من هذه الألفاظ الثلاثة يحمل كلُّ وجه منها معنىً مستقلاً ، ولا نتكلف فنقول إنها ترجع إلى أصل واحد ، فلا علاقة « بين معاني أمة » مثلاً : التي تكررت معانيها حتى بلغت تسعة وجوه :

فالأمة يعني العُصْبَة ـ والمِلَّة ـ والسُّنن ـ والقَوْم ـ والإمام ـ والأمم الخالية ، وأمة محمد خاصّة ،وأمة محمد الكفار منهم خاصة ـ والأمةالخَلْق[6] .

مما تقدَّم يتضح لنا أن غريب القرآن الكريم لم يكن بعيداً من لهجة قريش أو لغتها ، لأن هذا يتناقض مع القول المشهور وهو أن القرآن الكريم نزل بلغة قريش ، وإن كان في رأيي كما قدَّمت سابقاً : أنه نزل معظمه بلغة

---

(١) الانفال/٥٨ .

(٢) الحج/٢٥ .

(٣) القصص/٢٢ .

(٤) البقرة/٦ .

(٥) انظر : « التصاريف »من ص ٩٦ ـ ١١٢ . وقد تركت كثيراً من الأمثلة القرآنيّة المؤكدة للمعنى ، واكتفيت بمثال واحد لكل معنى حرصاً على الإيجاز .

(٦) انظر : تفسير : « أمة » على تسعة وجوه من كتاب « التصاريف » .

قريش ، وإلى جانبها نزل ببعض لغات العرب أو لهجاتها ليكون التَّحدي أتم ، والمعجزة أبلغ ، وقد ناقشنا هذه القضية فيما سبق .

لهذا لا أقبل رأي الواسطي الذي نقله السُّيوطي في « معترك الأقران »(١) وهو ليس في القرآن حرف غريب من لغة قريش غير ثلاثة أحرف لأن كلام قريش سهل ليِّن واضح ، وكلام العرب وحشيّ غريب ، فليس في القرآن إلا ثلاثة أحرف غريبة :

﴿ فَسَيُنْغِضون إليك رؤوسهم ﴾(٢) وهو تحريك الرأس ﴿ مقيتاً ﴾(٣) : مُقْتَدِراً ، ﴿ فَشَرِّدْ بِهِم ﴾ (٤) : سمع ، وكيف نقبل هذا الرأي بعد ما توحدت لهجة قريش ، وأصبحت اللُّغة النموذجية لكل العرب ؟

وكيف نقبل هذا الرأي ، وهذا ابن عباس يقول : ما كنت أدري : ما فاطر السّموات والأرض ، حتى أتاني عربيان يختصمان في بئر ، فقال أحدهما : أنا فطرتها يعني ابتدأتها ، وجاءه رجل من هذيل ، فقال له ابن عباس : ما فعل فلان ؟

قال : مات وترك أربعة من الولد ، وثلاثة من الوراء ، فقال ابن عباس : ﴿ فبشَّرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ﴾(٥) .

قال : ولد الولد .

وقال ابن عباس : ما كنت أدري ما قوله تعالى : ﴿ ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحقّ وأنت خيرُ الفاتحين ﴾(٦) حتى سمعت ابنة ذي يزن الحِمْيري وهي تقول : أفاتحك تعني أقاضيك(٧) .

وما لي أذهب بعيداً : وهذا أبو بكر الصِّديق رضي الله تعالى عنه توقف في

---

(١) انظر ٢٠٦/١
(٢) الاسراء/٥١ .
(٣) النساء/٨٥ .
(٤) الأنفال/٥٧ .
(٥) هود/٧١ .
(٦) الأعراف/٨٩ .
(٧) البرهان ٢٩٣/١ .

كلمة قرآنية لأنه لم يعرف معناها ، وتحرَّج أن يظن فيها برأي خوفاً من أن يكون هذا الرأي خطأً في المعنى ، وفي هذا تجرؤ على كتاب الله ، ولذلك وجد الصَّمت أحسن طريقة في هذا الموقف ، فقد حُكي أنه سئل عن قوله سبحانه : ﴿ قد شغفها حُباً ﴾[1] فسكت ، وقال : هذا في القرآن ، ثم ذكر قولاً لبعض العرب في جارية لقوم أرادوا بيعها : أتبيعونها وهي لكم شغاف ؟ ولم يزد على ذلك !! »[2] .

بعد هذه الجولة في غريب القرآن بضروبه المختلفة ، وأنواعه المتعدّدة أحب أن أعرض لأول مصنّف في هذا الفن ، ففي ضوئه نستطيع أن نعرف كيف تطوَّر هذا الغريب في المصنَّفات التي جاءت من بعده وكيف أفادت من هذا المصنف ؟ .

أول مصنّف في غريب القرآن :

إن أول مصنَّف يطالعنا في هذا المجال هو كتاب المجاز لابي عبيدة معمر بن المثنى ، والدليل على ذلك ما يعترف به السيوطيّ في كتابه « الوسائل في مسامرة الأوائل» حيث يقول: «إن أول من صنف في غريب القرآن أبو عبيدة معمر بن المثنى أخذ ذلك عن أسئلة نافع بن الأزرق لابن عبَّاس »[3] .

ومعنى ذلك أن أبا عبيدة كان المؤسس الأول للتصنيف في غريب القرآن لأنه : « جاء بعد قتادة دعامة السدوسي المتوّفى ١١٧ هـ وأبي عمرو بن العلاء المتوفى ١٥٤هـ ،وهما لم يخلفا لنا أثراً مكتوباً وإنما كانت الأخبار تنقل عنهما مشافهة »[4] .

وتتالت كتب الغريب بعد مجاز ابي عبيدة نخصّ منها بالذكر غريب القرآن لابن قتيبة الذي انتفع به الطبري[5] ، ونقل ألفاظه نقلاً حرفياً دون أن

---

(١) يوسف/٣٠ .

(٢) رسالة الخطابي في إعجاز القرآن/٣١ من كتاب ثلاث رسائل في إعجاز القرآن تحقيق الأستاذين محمد خلف الله ، ومحمد زغلول سلام ـ دار المعارف .

(٣) الوسائل في مسامرة الأوائل/١١٢ .

(٤) من مقدمة تلخيص البيان في مجازات القرآن للشريف الرضي تحقيق الأستاذ محمد عبد الغني حسن/٥ ط الحلبي .

(٥) انظر مقدمة تفسير غريب القرآن لابن قتيبة تحقيق السيد أحمد صقر .

يشير إلى ابن قتيبة بأيَّة إشارة واضحة أو مهمة .

معنى المجاز :

المجاز في هذا الكتاب ليس هو المصطلح البلاغيّ الذي يقابل الحقيقة في علوم البلاغة ، وإنما هو الغريب من الكلمات القرآنية ، وتفسير هذا الغريب بالشعر وكلام العرب .

على أن ابن النَّديم في الفهرست نصَّ على أن لأبي عبيدة كتاباً يسمى : غريب القرآن[1] . ومعنى ذلك أن ابن النديم نسب في كتابه هذا الغريب لأبي عبيدة ولم ينسب له كتاباً آخر باسم المجاز مما يدلّ على أن اسم المجاز الذي ورد ذكره في بعض المراجع الأخرى مقصود به الغريب وقد وضّح هذه المشكلة بما يزيل إشكالها الدكتور محمد زغلول سلام في كتابه : « أثر القرآن في تطور النقد العربي » حيث ذكر أن « اسمي مجاز القرآن ، وغريب القرآن كليهما لكتاب واحد » .

ويرجِّح هذا الاحتمال موضوع الكتاب الذي بين أيدينا باسم كتاب : « المجاز في تفسير غريب القرآن » وهو مخطوط مصوَّر بكلية الآداب بالاسكندرية تحت رقم ٣١٨٤ ب ، وسيتبينّ لقارئه أنه يبحث في معاني غريب اللُّغة واللفظ » .[2]

التباس كلمة المجاز على بعض الباحثين :

التبست كلمة المجاز على بعض الباحثين ، ومن هؤلاء المرحوم الأستاذ عبد العزيز البشري ، فقد ذهب إلى أن كتاب : «مجاز القرآن» لأبي عبيدة يدور حول بيان الحقيقة من المجاز في القرآن الكريم .

ووقع في مثل هذا الخطأ زميلنا المرحوم الدكتور حفنى شرف حيث ذكر في مقدمة كتابه «بديع القرآن» لابن أبي الأصبع أن أبا عبيدة، كان كلُّ همِّه معرفة الحقيقة والمجاز للألفاظ القرآنية ، وقرينها بما جاء مثيلاً لها في الأدب

---

(١) الفهرست/٥٨ مطبعة الاستقامة .

(٢) انظر أثر القرآن في تطور النقد الأدبي/٣٨ ، ٣٩ .

العربي مما جعل كتابه يعتبر بحق النواة الأولى للبحوث البيانيَّة .[1]

والحقُّ الذي لامرية فيه أن كتاب المجاز هو كتاب وضع لغريب القرآن ، والمراد به تفسير هذا الغـريب كما بينًـا بالشعـر وكلام العـرب هذا ، وقـدْ ردَّ الأستـاذ أمين الخولي على الأستـاذ البشري في مجلة الهـلال في قولـه : إن المجاز هو المجاز البياني أو البـلاغي بقولـه : « الحق الذي قـاله القـدماء ، وتنـطق به القـطعة المحفـوظة بـدار الكتب المصريـة من كتاب أبي عبيـدة ، نفسه . الحقُّ أن هذا الكتاب في تفسير القرآن » . ويؤيد أمين الخـولي رأيـه بقـول ابن تيمية في كتاب « الايمان » إذ يقول : « أول من عرف أنه تـكلَّم بالمجاز أبو عبيدة معَمَّر بن المثنَّى في كتابه ، ولكن لم يعن بالمجاز ما هو قسيم الحقيقة ، وإنما عُنِي بمجاز الآية ما يعبَّر به عن الآية »[2] .

اثر ابي عبيدة فيمن جاء بعده من اللغويين والنحويين :

قلت فيما سبق : إن أبا عبيـدة معمر بن المثنى كـان كتابـه « المجاز » أول مصنَّف في غريب القرآن الكريم وتفسيره ، وأقول هنا :

إن أبا عبيدة كان : « قد أسس مدرسة في تفسير القرآن عمـدتها الأولى الفقـه بالعربية وأساليبها »[3] .

وحسب أبي عبيدة في هذا المجـال تأثـر اللغويين والمفسـرين والنحاة بآرائه وبكتابه ، فقـد اعتمد على كتـابه ابن قتيبـة في « المُشْكِل الغـريب » ، والبخاري « في الصحيح » والطَّبري في تفسيـره ، واستفاد منـه أبو عبـد الله اليزيدي في كتابه : « غريب القرآن » والزجّاج في « معـانيه » وابن دريـد في « الجمهـرة » وابن النّحاس في « معـاني القرآن » والأزهـري في « التهذيب » وأبي علي الفارسي في « الحُجة » والجوهريّ في « الصحّـاح » . . ومن أهم

(١) انظر ص ٤٦ من مقدمة بديع القرآن .

(٢) انظر مجلة الهلال عدد ٤٤ سنة ١٩٣٦ ص ٥٤٥ مجلد ٥ .

(٣) من مقدمة كتاب الزينة/١٨ .

من استفاد من كتاب المجاز من المتأخرين : ابن حجر العسقلاني في « فتح الباري »[1] .

منهج أبي عبيدة في كتاب : « المجاز » :

١ ـ الاعتماد على حسِّه اللغوي في كل ما يورده من غرائب بعيداً عن القواعد السائدة والمنهج النحوي الصارم .

٢ ـ الاهتمام بالناحية اللُّغوية في القرآن صرفته عن الاشتغال في الميادين الأخرى التفسيرية من قصص ، وتشريع ، وفقه وأحكام .

٣ ـ الاستشهاد بالشعر العربي الموثق .

٤ ـ الاستشهاد بالنصوص اللغوية التي رويت من العرب والأعراب .[2]

---

(١) من مقدمة مجاز القرآن لمحققه الدكتور محمد فؤاد سزكين .

(٢) انظر مقدمة تحقيق كتاب المجاز .

صُوَرٌ مِنْ كِتَابِ المَجَازِ لأَبِي عُبَيْدَة

ـ من سورة المائدة :

(١) ﴿ أن تبوء بإثمي وإثمك ﴾[١] أي أن تحتمل إثمي . ويقال : قد أبأت الرَّجل بالرجل أي قتلته ، وقد أبأ فلان بفلان :

إذا قتلـه بقتيل ، قال عمرو بن جنّي التغلبيّ :

ألا تستحي منّـا ملوك وتـتقـي   محـارمنا لا يُبْـأَءُ الدَّم بـالدم[٢]

ولا يبـاء الدَّم بـالدم سـواء في معناهـا ويقـال : أبـأت بهـذا المنـزل أي نزلت »[٣] .

ـ من سورة الاعراف :

(٢) ﴿ولما سُقِط في أيديهم ﴾[٤] يقال لكل من نَدِم وعجز عن شيء ونحـو ذلك : « سقط في يد فلان »[٥] .

---

(١) المائدة/٢٩ .

(٢) المفضليات/٤٤٦ ، ونسب فيها الى جابر بن حنّى التغلبي برواية : « لايبوء » وفي اللسان برواية «لا يُبَاْءُ» .

(٣) مجاز القرآن ١ /١٦١ .

(٤) الأعراف/١٤٩ .

(٥) المجاز ١ /٢٢٨ .

ـ من سورة الأعراف أيضاً :

(٣) ﴿ بعذابٍ بئيس ﴾[١] أي شديد ، قال ذو الأصبع العدواني :

أإن رأيت بني أبيـــــــــك مُجَمَّحين إليك شوساً
حَنَقاً عليَّ وما ترى لي فيهم أثراً بئيساً[٢]

ـ من سورة الأنفال :

(٤) ﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾[٣] مجازه : ما ظفرت ولا أصبت ولكن الله أيَّدك ، وأظفرك ، وأصاب بك ونصرك ويقال : رمى الله لك أي نصرك الله ، وصنع لك[٤] .

ـ من سورة يوسف :

(٥) ﴿ قد شغفها حبّاً ﴾[٥] : أي قد وصل الحب إلى شغاف قلبها وهو غلافه .

قال النابغة الذبياني :

ولكن همّاً دون ذلك والجٌ مكان الشَّغاف تبتغيه الأصابع[٦]

ـ من سورة الطور :

(٦) ﴿وما ألتناهم من عملهم من شيء﴾[٧] مجازها: أي ما نقصناهم، ولا حَبَسْنا منهم شيئاً، وفيه ثلاث لغات:

ألت يألِت ، تقديرها : أفل يأفِل ، وآلات يليت تقديرها : أفال يَفيل ، ولات يليت ، قال رؤية :

ولـيلة ذات نـدى سريـت ولم يَلِتنيْ عن سُراها ليتُ[٨]

---

(١) الأعراف/١٦٥ .
(٢) المجاز/ ١/ ٢٣١.
(٣) الانفال/١٧ .
(٤) المجاز ١/ ٢٤٤.
(٥) يوسف/٣٠ .
(٦) المجاز ١/٣٠٨ ، وانظر ديوان النابغة/١٦٣ .
(٧) الطور/ ٢١ .
(٨) المجاز ٢/٢٣٢ .

وبعد ، فلعلِّي بعد هذا الذي قدمت قد رسمت الخطوط العريضة للهجة قريش في ضوء غريب القرآن الكريم .

وقد ثبت لنا بما لا يدع مجالاً للشَّك أن الغريب بابه واسع ، وسرُّ إعجاز القرآن الكريم أن المدلول اللغوي للكلمة لا يوزن وزناً ، ولا يقاس قياساً ، لأن الهزة الاجتماعيّة التي هزَّ القرآن الكريم بها العرب ليتحدّاهم ، إنَّما جاءت من هذه الإشعاعات الدَّلاليّة التي يعطيها سياق الكلام وترتيب بعضها مع بعض قوةً وسمّواً، وبذلك يكون القرآن الكريم قلعة كبرى لا يصعد إليها أحد في فنون القول، وفي تنوُّع الدلالات، وفي بليغ الإشارات، لأنه تنزيل من حكيم حميد لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وللهِ درُّ ، ابن فارس في كتابه « الصاحبي » إذ بيَّن لنا أنَّ القرآن الكريم أحدث في اللغة العربية استعمالات ودلالات لم يكن العرب قبل الإسلام على معرفة بها ، ويرجع السبب في ذلك إلى التَّطور الاجتماعي في جزيرة العرب بعد ظهور الإسلام ، هذا التَّطور الذي أحدث في اللغة ثروة هائلة من المعاني ، وسيلاً جارفاً من الألفاظ ، وقدراً كبيراً من الأساليب المتنوعة ، وطرائق الكلام المختلفة ، ولنترك ابن فارس يطالعنا بهذا النص المبدع الذي وضع فيه النقاط على الحروف مبيِّناً كيف صنع القرآن الكريم في هذه اللغة العجائب التي لا تحصى ، والأسرار التي لا تستوعب؟ يقول:

« كانت العرب في جاهليَّتها على إرث من إرْث آبائهم في لغاتهم وآدابهم ونسائكهم، وقرابينهم ، فلما جاء الله جل ثناؤه بالإسلام حالت أحوال ، ونسخت ديانات ، وأبطلت أمور ، ونقلت من اللغة ألفاظ عن مواضع إلى مواضع أخر بزيادات زيدت ، وشرائع شرعت ، وشرائط شرطت . فعفَّى الآخرُ الأوَّلَ، وشغل القوم ـ بعد المغاورات والتِّجارات، وتطلب الأرباح والكدح للمعاش ورحلة الشتاء والصيف وبعد الإغرام بالصَّيد ، والمعاقرة والمياسرة ـ بتلاوة الكتاب العزيز الذي ﴿ **لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد** ﴾ ، وبالتَّفقّه في دين الله عز وجل ، وحفظ سُنَنِ رسول الله (ﷺ) مع اجتهادهم في مجاهدة أعداء الإسلام .

فصار الذي نشأ عليه آباؤهم ونشئوا هم عليه، كأن لم يكن وحتى تكلَّموا في دقائق الفقه ، وغوامض أبواب المواريث ، وغيرها من علم الشريعة ، وتأويل الوحي بما دُوِّن وحفظ حتى الآن » .

إلى أن يقول : « فسبحان من نقل أولئك في الزمن القريب بتوفيقه عمَّا ألفوه ، ونشأوا عليه ، وغذُوا به إلى مثل هذا الذي ذكرناه » .

وكل ذلك دليل على حق الإيمان ، وصحَّة نبوة نبينا محمد (ﷺ) .

فكان مما جاء في الإسلام ـ ذكر المؤمن والكافر والمنافق ، وأن العرب إنما عرفت المؤمن من الأمان ، والإيمان وهو التصديق ثم زادت الشريعة شرائط وأوصافاً بها سمِّي المؤمن بالإطلاق مؤمناً وكذلك الإسلام . والمسلم إنما عَرَفَتْ منه إسلام الشيء ، ثم جاء في الشريعة من أوصافه ما جاء .

وكذلك كانت العرب لا تعرف من الكُفْر إلا الغطاء والسَّتر ، فأما المنافق فاسم جاء بعد الإسلام لقوم أبطنوا غير ما أظهروه وكان في الأصل من نافقاء اليربوع .

ولم يعرفوا في الفسق إلا قولهم : « فسقت الرّطبة » إذا خرجت من قشرها . وجاء الشرع بأن الفسق : الإفحاش في الخروج عن طاعة الله جلَّ ثناؤه ، ومما جاء في الشرع : الصلاة ، وأصله في لغتهم الدعاء »(١).

وبعد ، فلعلِّي بعد هذه الجولة في القضايا اللغوية من خلال القرآن الكريم استطعت أن أقدم بعض القضايا التي قد تخفى على كثير من المثقفِّين ، وطلاب الدراسات القرآنية .

وأرجو الله أن يوفقني للسير قدماً في طريق خدمة القرآن الكريم ليكون إمتاعاً في الدنيا ، ونوراً يهديني إلى النجاة في الآخرة إن شاء الله .

والله الموفق ،،،

---

(١) الصاحبي /٧٨ ـ ٨٦ بتصرّف .

المراجع والمصادر

١ ـ إتحاف فضلاء البشر للدمياطي .
مطبعة المشهد الحسيني .

٢ ـ الإتقان في علوم القرآن لجلال الدين السّيوطي .
مطبعة الحلبي ، طبعة ثالثة .

٣ ـ أثر القراءات القرآنية في الدراسات النحوية .
للدكتور/عبد العال سالم مكرم ، نشر المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالقاهرة ، طبعة أولى . ومؤسسة الصباح للنشر بالكويت ، طبعة ثانية .

٤ ـ أثر القرآن في تطوّر النقد الأدبي .
للدكتور محمد زغلول سلام ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة .

٥ ـ إعجاز القرآن : مصطفى صادق الرافعيّ .
مطبعة الاستقامة ، طبعة سادسة .

٦ ـ إعراب القرآن لأبي جعفر النّحاس .
تحقيق الدكتور/زهير غازي زاهد ، الدار الوطنية للتوزيع والإعلان بغداد .

٧ ـ إعراب القرآن للعكبري .
مطبعة الحلبي .

٨ ـ الاقتراح لجلال الدين السّيوطي .
مطبعة دار المعارف النظامية ، ط أولى ، حيدر آباد بالهند .

٩ ـ الإمالة في القراءات واللّهجات .
للدكتور/عبد الفتاح شلبي ـ نهضة مصر للطباعة .

١٠ ـ الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي .
منشورات مكتبة دار الحياة ـ بيروت .

١١ ـ البحر المحيط لأبي حيان الأندلسيّ .
مطبعة السعادة ، طبعة أولى .

١٢ ـ بديع القرآن لابن أبي الأصبع .
تحقيق المرحوم الدكتور حفني شرف ، طبعة أولى .

١٣ ـ البرهان في علوم القرآن للزركشي .
نشر عيسى البابي الحلبي ، طبعة أولى .

١٤ ـ البيان والتبيين للجاحظ .
تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، طبعة ثانية .

١٥ ـ تاريخ آداب العرب للرافعيّ .
نشر المكتبة التجارية الكبرى بمصر ، طبعة ثانية .

١٦ ـ التبيان لأبي جعفر محمد بن الحسن الطوسيّ .
نشر المطبعة العلمية في النّجف.

١٧ ـ تفسير الطبري .
نشر دار المعرفة ـ بيروت ـ لبنان .

١٨ ـ التصاريف ليحيى بن سلام .
تحقيق هند شلبي ـ نشر الشركة التونسية للتوزيع .

١٩ ـ تفسير غريب القرآن لابن قتيبة .
تحقيق السيد أحمد صقر .

٢٠ ـ تفسير الفخر الرازي .
طبعة ثانية ـ دار الكتب العلمية طهران .

٢١ ـ تفسير القرطبي .
دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ لبنان .

٢٢ ـ ثلاث رسائل في إعجاز القرآن الكريم .
تحقيق الأستاذين محمد خلف الله ـ ومحمد زغلول سلام ، ط دار المعارف القاهرة .

٢٢ ـ تفسير الكشاف .
دار المعرفة للطباعة والنشر ـ بيروت ـ لبنان .

٢٣ ـ تلخيص البيان في مجازات القرآن للرّضى .
تحقيق محمد عبد الغنى حسن ، ط الحلبي القاهرة .

٢٣ ـ ثلاث رسائل في إعجاز القرآن الكريم .
دار المعارف بالقاهرة .

٢٤ ـ جواهر القرآن ودرره للإمام الغزاليّ .
دار الآفاق الجديدة ـ بيروت .

٢٥ ـ حاشية الجاربردي على الشافية لابن الحاجب .
دار الطباعة القاهرة ١٣١٠ ـ مصر .

٢٦ ـ حاشية ابن جماعة على الشافية .
دار الطباعة القاهرة ١٣١٠ ـ مصر .

٢٧ ـ الحجة لابن خالويه .
تحقيق الدكتور عبد العال سالم مكرم ، دار الشروق ـ بيروت . أربع طبعات .

٢٨ ـ الحجة لأبي زرعة .
سعيد الآفغاني ، مؤسسة الرسالة ـ بيروت .

٢٩ ـ دراسات في العربيّة وتاريخها .
للشيخ محمد الخضر حسين .

٣٠ ـ دلالة الألفاظ .
للدكتور إبراهيم أنيس ، نشر مكتبة الإنجلوالمصرية .

٣١ ـ ديوان الأدب للفارابي .
تحقيق الدكتور . أحمد مختار عمر ، نشر مجمع اللغة العربيّة بالقاهرة .

٣٢ ـ ديوان امرىء القيس .
تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم .
دار صادر ـ بيروت .

٣٣ ـ ديوان أوس بن حجر .
تحقيق الدكتور محمد يوسف نجم ـ دار صادر ـ بيروت .

٣٤ ـ ديوان الحطيئة .
دار صادر ـ بيروت .

٣٥ ـ ديوان طرفة بن العبد .
دار الفكر للجميع .

٣٦ ـ ديوان عنترة .
دار الفكر للجميع .

٣٧ ـ ديوان النابغة .
تحقيق محمد بن الفضل عاشور ـ الشركة التونسية للتوزيع .

٣٨ ـ ديوان الهذليين .
الدار القومية للطباعة والنشر . القاهرة .

٣٩ ـ رسالة الخطابيّ في إعجاز القرآن الكريم .
دار المعارف ـ القاهرة .

٤٠ ـ الرسالة .
للإمام الشافعيّ .

٤١ ـ الزينـة .
لأبي حاتم الرّازي .

٤٢ ـ شرح الجاربردي على الشافية .

٤٣ ـ الصاحبي لابن فارس .
تحقيق السيد أحمد صقر ، عيسى البابي الحلبّي .

٤٤ ـ العمدة لابن رشيق .
تحقيق الأستاذ محمدمحيي الدين . دار الجيل ـ بيروت ـ لبنان .

٤٥ ـ العربيّة ليوهان فك .
ترجمة المرحوم الدكتور عبد الحليم النجّار ـ طبع دار الكتاب العربيّ .

٤٦ ـ الفائق في غريب الحديث للزمخشري .
تحقيق علي البحاويّ ومحمّد أبي الفضل ـ طبع ونشر عيسى البابي الحلبيّ .

٤٧ ـ فجر الإسلام للأستاذ أحمد أمين .
دار الكتاب العربيّ ـ بيروت ـ لبنان .

٤٨ ـ فلسفة اللغة لكمال يوسف الحاجّ .
دار النشر للجامعيّين .

٤٩ ـ الفهرست لابن النديم .
مطبعة الاستقامة .

٥٠ ـ في الأدب الجاهلي لطه حسين .
مطبعة دار المعارف .

٥١ ـ القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية .
للدكتور/عبد العال سالم مكرم طبعة أولى دار المعارف بالقاهرة
وطبعة ثانية: مؤسسة الصباح للنشر بالكويت.

٥٢ ـ كتاب سيبويه .
تحقيق الأستاذ/عبد السلام هارون ـ دار القلم .

٥٣ ـ لسان العرب لابن منظور .
عدة طبعات .

٥٤ ـ اللغة بين الفرد والمجتمع لأوتوجسبرس .
ترجمة الدكتور/عبد الرحمن أيوب ـ نشر مكتبة الإنجلو .

٥٥ ـ اللهجات العربيّة .
للدكتور/إبراهيم أنيس .

٥٦ ـ مجاز القرآن لأبي عبيدة .
تحقيق محمد فؤاد سزكين . طبعة أولى نشر الخانجي .

٥٧ ـ مجلة الأزهر بمصر .

٥٨ ـ مجلة اللسان العربي .
مكتب التعريب والتنسيق للجامعة العربيّة بالرّباط .

٥٩ ـ مجلة كلية الآداب .
جامعة القاهرة .

٦٠ ـ مجلة الهلال بمصر .

٦١ ـ المحتسب في القراءات الشاذّة لابن جني .
تحقيق الأستاذين علي النجدي ناصف والدكتور/عبد الفتاح شلبي، نشر المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية.

٦٢ ـ المزهر لجلال الدين السيّوطي .
طبعة ثانية ، نشر الحلبي .

٦٣ ـ المسائل لابن السيّد .
نسخة مصوّرة بمكتبة جامعة القاهرة رقم ٢٢٠٩٦٧ .

٦٤ ـ معترك الأقران لجلال الدين السيّوطي .
تحقيق علي البحاوي ـ دار الفكر العربيّ .

٦٥ ـ المعرّب للجواليقيّ .
تحقيق أحمد شاكر .

٦٦ ـ مفتاح السعادة .
لطاش كبري زادة ـ دائرة المعارف النظامية بالهند .

٦٧ ـ المفضليات .
مكتبة المثنّى ببغداد .

٦٨ ـ مقدمتان في علوم القرآن ، وهما مقدمة : كتاب المباني .
لمؤلف مجهول ومقدمة ابن عطية ، تحقيق أرثر جفري ، مطبعة السنّة المحمديّة .

٦٩ ـ مقدمة ابن خلدون
المطبعة الأزهرية ١٩٣٠ م .

٧٠ ـ مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية .
تحقيق جميل الشطي . مطبعة التّرقي بدمشق.

٧١ ـ من الدراسات القرآنية
للدكتور/عبد العال سالم مكرم ـ مؤسسة الصباح للنشر بالكويت .

٧٢ ـ النثر الفنّي لزكي مبارك .
دار الكاتب العربي للطباعة والنشر القاهرة .

٧٣ ـ النشر في القراءات العشر .
لابن الجزريّ ، تحقيق محمد أحمد دهمان . مطبعة التركي بدمشق .

٧٤ ـ همع الهوامع .
لجلال الدين السيّوطي ، الجزء الأول ، بتحقيق الأستاذ عبد السلام هارون وعبد العال سالم مكرم ، وبقية الأجزاء ، بتحقيق الثاني .

٧٥ ـ الوسائل في مسامرة الأوائل .
لجلال الدين السيّوطي .

فهرس البحث

تطلب جميع منشوراتنا من :

الشركة المتحدة للتوزيع

بيروت - شارع سورية - بناية صمدي وصالحة

هاتف: ٣١٩٠٣٩ - ٢٩٥٥٠١ - ص ب ٧٤٦٠ - برقياً: بيوتران